تاريخ

قبائل البجا

بشرق السودان

أ. بپول



نقله إلى العربية

دكتور / أوشيك آدم على

كلمة المترجم

مؤلف هذا الكتاب هو الادارى البريطانى پول الذى الم بالبجا الماماً واسعاً ولكن نظرته لم تخل من صلف وكبرياء . نعت القبائل البجاوية بكل ذميم وقبيح وكان اكثر قسوة على الثورة المهدية ورمزها الفذ فى الشرق الامير عثمان دقنه . هذا موقف غير مستبعد من كاتب بريطانى نذر نفسه لرعاية المصالح البريطانية وبالتالى لابد ان يجد لها مبرراً أخلاقياً لاستعمار الشعوب واستعبادها .

رغم ذلك فالكتاب ، فى نظرى ، جدير بالترجمة لانه حوى على حقائق كثيرة عن البجا لم تكن معروفة للكثير من العامة ، وربما لبعض الخاصة . يعطى الكتاب سرداً تاريخياً مفصلاً عن قبائل شرق السودان التى يمتد تأريخها المعروف لاكثر من أربعة ألف سنه . فهم عاصروا كل الحضارات التى تعاقبت على منطقة الشرق الاوسط وجنوب الجزيرة العربية ، فضلاً على الدويلات والممالك السودانية المختلفة .

فى سياق حديثه اعطى الكاتب أيضاً سرداً لكل المعارك التى خاضها البجا ذوداً عن الارض والعرض ، وبالذات تلك المعارك الشرسة مع البريطانيين والتى استبسل فيها البجاوى استبسالاً كان مثار اعجاب وتقدير للجنود البريطانيين ومن خلفهم فحول شعرائهم أمثال نيوبولت وكبلنغ وغيرهم الذين استنطقتهم تلك الملاحم البطولية وإستلهمتهم شعراً رصيناً يمجدون فيه تلك الشجاعة التى قوضت جبروت المؤسسة العسكرية البريطانية وما تحملها من آليات الفتك والدمار ، هذا من غير أن يلين عزمهم أو تكسر شوكتهم حتى أصبح الشرق كله بركاناً يغلى تحت اقدام الغزاة البريطانيين يجرعهم الهزيمة واحدة تلو الأخرى ، ثم تعقدت الامور لدرجة يطلب فيها عقد جلسات استثنائية لمجلس العموم البريطانى وحكومة الأحرار آنذاك لمعالجة الموقف المتفجر بشرق السودان ولوضع حد لهزائمهم المتلاحقة هناك .

اتمنى أن يجد هذا الكتاب قبولاً حسناً وسط القراء السودانيين وأن يكون رصيداً جديداً للمكتبة العربية السودانية حتى تتسع رقعة تداوله .

لابد هنا أن أتقدم بوافر الشكر لكل من ساهم فى هذا العمل قولاً وفعلاً وتشجيع

ولاسيماء أسرتى التى أُجبرت على الصبر والتحمل .

وكلمة أخيرة وهى أن إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة لم يكن ممكناً لولا الجهود المخلصة والعناية الشخصية التى حظى بها من الأخ أحمد آدم أبوموسى ، بمطبعة جامعة الخرطوم ، فله منى خالص الشكر والثناء

الخرطوم ١٩٩٧م المترجم

تمهيد

تلخص هدفى من هذا الكتاب تقديم تأريخ مكتمل ، بقدر الامكان عن القبائل التى تقطن الآن جبال وصحارى شرق السودان . بالطبع لم تكن هذه غايه سهلة المنال ، إذ لم يكن فى مقدورى أن أكرس لها الزمن المطلوب كما كنت أرغب وذلك بسبب أعبائى الرسمية ، فضلا على أن دارس التأريخ البجاوى لابد وأن ينفرد بإلمام عميق باللغات قديمها وحديثها وأنا لا أدعى لنفسى هذه المكانة .

تجنبت أن أزحم القارئ بالمعلومات والمراجع الكثيره التى تناولت الموضوع بالسطحية ، غير إنى أأمل أن قائمة المراجع المرفقة فى نهاية الكتاب (النص الانجليزى) أن تحتوى على كل المعلومات المفيدة عن البجا .

أتقدم بالشكر والثناء لكل من ساهم بالرأى والنصح وبالذات أمين مكتبة نيوبولد بالكلية الجامعية بالخرطوم ، الذى لم يبخل على بأى كتاب أو مرجع . وكذلك أتقدم بالشكر الى السيد مدير الآثار الذى سمح لى بالإضطلاع على مذكرات المرحوم سير دوغلاس نيوبولد (الموجودة حالياً فى متحف اشموليان بإكسفورد) . لابد أن أثنى كثيراً للسيد محمد صالح أفندى ضرار على يانجى فى شركة تلغراف الشرق ببورتسودان والذى وضع إلمامه الموسوعى بقبائل البحر الأحمر تحت تصرفى .

وأخيراً لايفوتنى الا أن أشكر حكومة السودان ودار نشر جامعة كمبردج لما أبدوه من تعاون كريم فى طباعة وإخراج هذا الكتاب .

كسلا ١٩٥٤   أ . ب

تمهيد

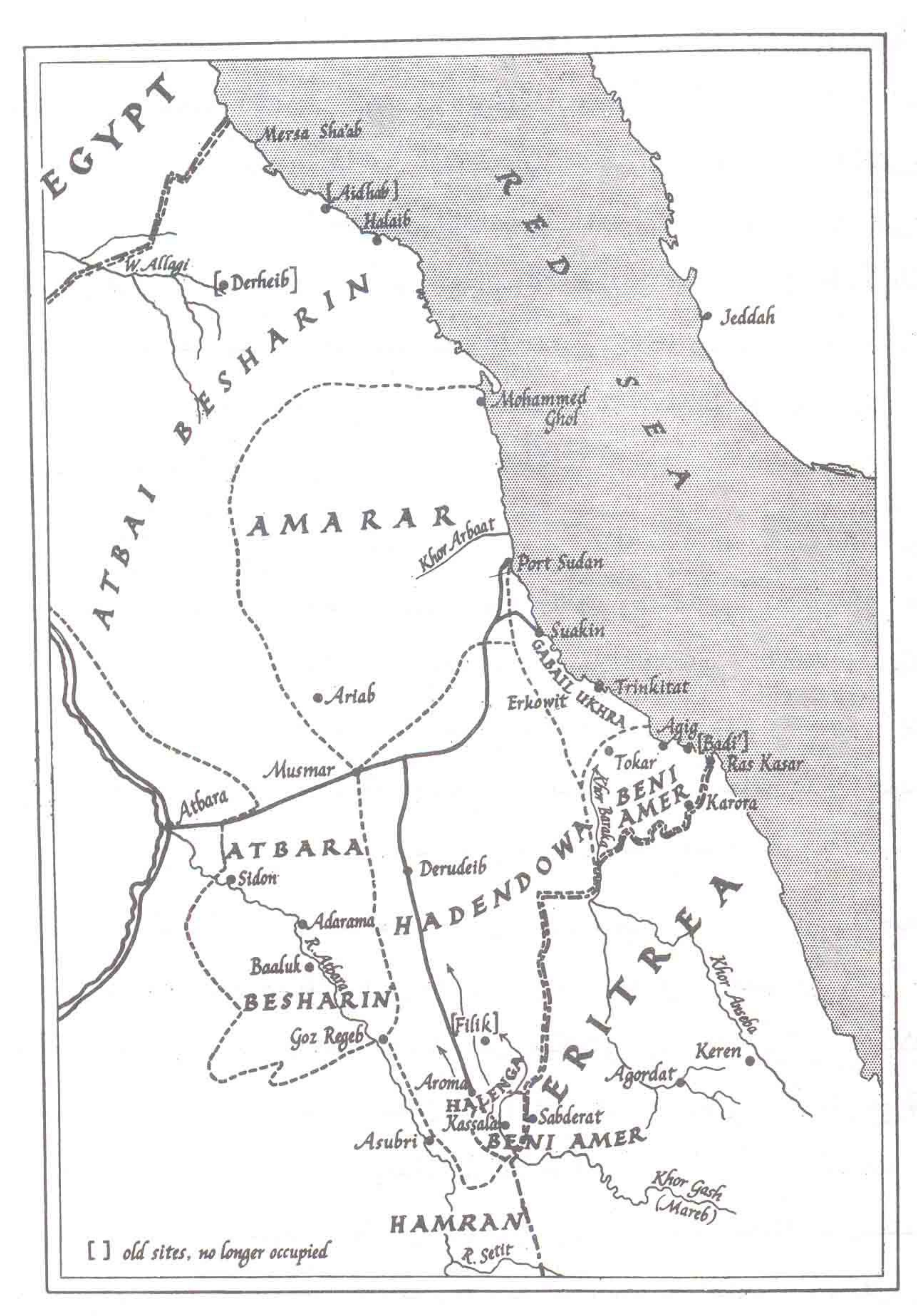
تلخص هدفى من هذا الكتاب تقديم تأريخ مكتمل ، بقدر الامكان عن القبائل التى تقطن الآن جبال وصحارى شرق السودان . بالطبع لم تكن هذه غايه سهلة المنال ، إذ لم يكن فى مقدورى أن أكرس لها الزمن المطلوب كما كنت أرغب وذلك بسبب أعبائى الرسمية ، فضلا على أن دارس التأريخ البجاوى لابد وأن ينفرد بإلمام عميق باللغات قديمها وحديثها وأنا لا أدعى لنفسى هذه المكانة .

تجنبت أن أزحم القارئ بالمعلومات والمراجع الكثيره التى تناولت الموضوع بالسطحية ، غير إنى أأمل أن قائمة المراجع المرفقة فى نهاية الكتاب (النص الانجليزى) أن تحتوى على كل المعلومات المفيدة عن البجا .

أتقدم بالشكر والثناء لكل من ساهم بالرأى والنصح وبالذات أمين مكتبة نيوبولد بالكلية الجامعية بالخرطوم ، الذى لم يبخل على بأى كتاب أو مرجع . وكذلك أتقدم بالشكر الى السيد مدير الآثار الذى سمح لى بالإضطلاع على مذكرات المرحوم سير دوغلاس نيوبولد (الموجودة حالياً فى متحف اشموليان بإكسفورد) . لابد أن أثنى كثيراً للسيد محمد صالح أفندى ضرار على يانجى فى شركة تلغراف الشرق ببورتسودان والذى وضع إلمامه الموسوعى بقبائل البحر الأحمر تحت تصرفى .

وأخيراً لايفوتنى الا أن أشكر حكومة السودان ودار نشر جامعة كمبردج لما أبدوه من تعاون كريم فى طباعة وإخراج هذا الكتاب .

كسلا ١٩٥٤   أ . ب


EGYPT
Mersa Sha'ab
[Aidhab]
Halaib
RED SEA
W. Allaqi
[Derheib]
Jeddah
BESHARIN
ATBAI
Mohammed Ghol
AMARAR
Khor Arbaat
Port Sudan
Suakin
GABAIL UKHRA
Trinkitat
Ariab
Erkowit
Agig
[Badi']
Ras Kasar
Tokar
Musmar
Khor Baraka
BENI AMER
Karora
Atbara
ATBARA
Sidon
Derudeib
HADENDOWA
Adarama
R. Atbara
Baaluk
BESHARIN
ERITREA
Khor Anseba
[Filik]
Goz Regeb
Keren
Agordat
Aroma
HALENGA
Sabderat
Kassala
Asubri
BENI AMER
Khor Gash (Mareb)
HAMRAN
R. Setit
[ ] old sites, no longer occupied

أرض البجا

ظلت متماسكة ومحافظة على معنوياتها .

وللتأريخ فإن بقاء هذه الأمة على هذه الهيئة يعتبر من الامور التى تثير العجب ، وقد يرجع ذلك لأسباب عدة منها قسوة الحياة فى المنطقة التى يعيشون فيها ، ولكن يرجع فى المقام الأول الى شخصيتهم المتميزة التى تطبعت لحياة بدوية حرة اقترنت بخشونة خالية من الحساسيات . إنعكس ذلك على تكوينهم الوجدانى والنفسى الذى تميز بروح عدوانية مقرونة بنزاعات قبلية اصبحت نمطاً من أنماط حياتهم اليومية . والبجا لا يقيمون وزنا يذكر لحياة الانسان مثلهم مثل المجموعات البدائية الحامية الأخرى مثل الشلك فى أعالى النيل والماساى فى سهول تنجانيقا . فهم إجلاف متوحشون ويمكنك أن تطلق عليهم ما شئت من الأوصاف الغير صحية مثل تلبك شعوهم بدهن الاغنام وتدليك أجسادهم بالسمن الذى تفوح منه رائحة العرق الممزوج بدخان الحطب . هذا كله يجعل من البجا ، للذين يعرفونهم جيداً ، عنصراً غير جدير بالبحث والدراسة .

ظل البجاويون ، على امتداد تأريخهم الطويل ، فى عزلة تامة غير خاضعين لأى سلطة مهما كان نوعها أومصدرها ، وبقوا مشتتين فى جبالهم وصحاريهم بعدين كل البعد عن أى أتصال بالخارج محافظين بذلك على حريتهم واستقلاليتهم وغير عابئين أو مهتمين بما يجرى حولهم . فهم لا يطلبون من هذا العالم اكثر من أن يتركهم وشأنهم . بل تزداد فرحتهم وبهجتهم اثناء الحكومات الضعيفة ، أو بالأحرى فى حالة عدم وجودها على الاطلاق ليتفرغوا لقطعانهم ولصراعاتهم مع جيرانهم متى ما سنحت الفرصة لذلك .

هذه الصورة الخارجية التى تم عرضها هى نموذج حى لشعب بدائى متعطش للدماء وغير جذاب ، خصوصاً لأولئك الذين إحتكوا بهم . فقدماء المصريين كانوا يلقبونهم بالكوشيين القبيحين . وقال عنهم بومبيونوس ميلا فى القرن الثانى بعد الميلاد " أنهم أقرب للحيوانات المتوحشة منها للإنسان " . وبعد ألف عام من ذلك التأريخ قال عنهم الكتاب العربى ابى جبير " أنهم يعيشون كالحيوانات وتحتاج ديار الاسلام هذه الى التخلص منهم " . وذكر عنهم خوان دى كاسترو الذى شارك فى حملة الاستكشاف الغير ناجحة ضد السويس عام ١٥٤٠ « بانهم قوم تفرغوا للسلب والنهب » . وانفرد لينان دى بيلفوند ، المهندس الفرنسى الذى زار جنوب عيتباى عام ١٨٣٣ ، بوصف أحسن من

سابقيه لأنه ذكر عنهم بعض الصفات الحسنة ، الا أنه وفى نفس الوقت اعترف كغيره بجميع أخطائهم " بأنهم كذابون ولصوص حيثما سنحت لهم الفرصة بذلك ، ثم انهم كسالى الى أبعد الحدود ، ولكنهم رغم ذلك فهم شجعان وأوفياء ويتمتعون بشجاعة وفروسية بالغتين " .

أما الألمانى شوينفورث ، الذى زار نفس المنطقة عام ١٨٦٤ فكان أقل إعجاباً بهم من زميله الفرنسى حيث قال " إنهم غير كرماء وكذابون . وعدوانيون كالشوك الذى ينموا فى مناطقهم " . وقال عنهم أبل شابمان ، عالم الطبيعة الذى زار الهدندوة الشماليين عام ١٩٢١م " بأنهم أكثر الشعوب بدائية وتوحشاً " هذه هى الصورة التى نقلها عنهم الكتاب كاتباً تلو الآخر ولم يبق بعد ذلك ما يضيفونه من الأوصاف .

أما لجيرانهم ، ما إذا كانوا الرومان فى مصر أو النوبة أو العرب أخيراً فى وادى النيل ، فهم شعب عدوانى ضار تطبع بكل الصفات الشيطانية ، وهذا ما حدى بالقصاصين العرب أن ينسبوهم الى جن يسمى هفف أو صخر ، ذلك الجن الذى كذب على الملك سليمان بن داوود فى أمر احدى زوجاته . إنه ليس من العدل الحكم على هذا المستوى البدائى بمفاهيمنا وثقافة عصرنا الذى تعقدت حلقاته ، لانه من غير المنطقى ان ننسى حال أجدادنا الذين وصفهم الرومان عام ٥٤ قبل الميلاد بأنهم قوم قساة متوحشون ، ثم تغيرت طباعنا وممارساتنا خلال الالفين عام اللاحقة واصبحنا شعبا مختلفا ، عكس البجا الذين لم يبعدوا كثيراً عن ماضيهم الذى تميز بالبداوة والوحشية والعدوانية .

خضع البجا ، لأول مرة فى تأريخهم لسلطة حقيقية فى الخمسين عام الماضية . كان هدف هذه السلطة هو تحقيق الأمن والقضاء على الجوع والمرض وتوفير التعليم واستغلال مواردهم الشحيحة . . يحتاج جنى ثمار هذه المحاولة ، بطبيعة الحال ، لفترة من الزمن ولكن بعض المؤشرات الحميدة فى هذا الاتجاه هى انهم اليوم اقل إحتكاماً للسيف عن ما مضى واكثر ميلاً لفض النزاعات عن طريق الحوار والمفاوضات واللذان يخضعان دائماً للتطويل والمماطلة والتسويات اللانهائية . واعتقد أن ميزة التسوية هى صفة لها جذورها العميقة فى الشخصية البجاوية ولكن لم يتوفر لها المناخ الملائم للتطور الا فى الفترة الأخيرة ، أى فقط فى ظل الظروف السلمية التى خضعت لها المنطقة . علاوة على ذلك فإن

البجا يتميزون بمقدرة غير محدودة للخصام والمقاضاة . ليست هنالك حالة احدة ، بالذات تلك المتعلقة بالارض أو الماء حسمت فى فترة وجيزة من غير أن تمر عبر نقاش طويل وعقيم تمتد جلساته الى فترة طويلة ويتخلله التأجيل والتسويف والماطلة . عندما تفشل تلك المحاولات تفض النزاعات بالاحتكام لقانون الشريعة التى يجلس على قمتها قضاة قبليون اميون ولكنهم امناء وصادقون .

وفى الجانب الاخر ابدى البجا كثيراً من مظاهر الانقياد والود ، وهذه محاسن يجب أن يشكر عليها اولئك المشرفون على إدارة مناطقهم . غير أن هذه الخصال تحتاج لفترة أطول لكى تصقل وتتبلور ، بالذات لشعب تعود لحياة العزلة والاستقلالية والتخوف وعدم الاطمئنان للغريب . وبالتالى فان فترة النصف قرن الاخيرة تعتبر فترة قصيرة وغير كافية لإزالة كل المخاوف والاعتقادات الضاربة فى القدم . الان فإن جزءاً من وحشيتهم تم ترويضها واحتفظوا بكثير من صفات البداوة ، مثل البساطة والشجاعة والصبر والشهامة ، وقدراً من الدعابة والفكاهة اضافة لذلك فإن البجا ابدوا بعضاً من الود والاحترام لأولئك الذين كسبوا صداقتهم وثقتهم . إنه من الصعوبة بمكان تأمين مثل هذه الثقة التى تعتبر من الانجازات القيمة . وعبر أحد إدارى المنطقة عن هذه الحالة بما يلى " أنه من الأشياء التى تثلج الصدر هى تأمين رضى البجاوى الذى يتعذر ترويضه " .

الانطباع الذى يخرج به المشاهد عن البجا اليوم هو الانعزالية والكسل والتفرغ الكامل لقضاياهم الخاصة والارتباط الشديد ، من غير تنازل أو مساومة ، بوحدة اراضيهم وحقوقهم القبلية . لذلك فهم ينظرون للارض التى ترعى فيها ماشيتهم وتنمو فيها غلالهم البسيطة بأنها أحدى المقدسات التى لا يسمح المساس بها أو النيل منها ولا يسمح بإنتزاعها الا بالقوة . غير أنهم لا يمانعون فى أن ينتفع بها من يرتضونه وبرضاهم أو عن طريق الاتفاق والموافقة المسبقة شريطة أن لا يكون هنالك مجرد نقاش الى من تؤول ملكيتها . لذلك فهم يتصفون بعناد شديد فى المحافظة على ملكيتهم ولا يترددون فى إستعمال القوة للحفاظ عليها . والهدندوة ، بصفة خاصة ، هم أكثر القبائل البجاوية تمسكاً بأرضهم لدرجة أنهم فرضوا على بعض المناطق اتاوات مقابل حمايتها من القبائل الأخرى . فمثلا كان على الجميلاب يقع عبء حماية الجبهة الشرقية من توغل البنى عامر ،

وفى الجانب الاخر نجد أن الشبوديناب كانوا يحرسـون الجبهة الغربية من نفوذ البشاريين . وتفرغ المحمود عليهداب ، مجموعة صغيرة على نهر عطبرة ، لمنع الشكرية من عبور أراضيهم .

هنالك حادثة توضح ارتباط البجا الشديد بأرضهم ، وكانت هذه بسبب رد فعلهم للغزو الايطالى للسودان فى صيف وخريف ١٩٤٠م . فى تلك الاثناء احتل الايطاليون كسلا ، وكان هنالك إحساس من أن تفلت الامور فى ارض البجا خوفاً من انضمامهم للعدو ، أو تقديم المساعدة له ، إذ كانوا يعتقدون هزيمة البريطانيين فى تلك الحرب . قدم البجا ، والهدندوة بصفة خاصة ، خدمات جليلة دون ربطها باحتمال نجاح الغزو الايطالى . إعتقد البريطانيون أن هذا الموقف هو مكافأة لهم ونجاحاً لوسائلهم فى الادارة والحكم . أما انا فيراودنى الشك فى ذلك الاعتقاد . قد يكون هنالك فعلا نجاحاً لبعض الاداريين ، ولكن معرفتى الدقيقة بالبجا تجعلنى أجزم بأن البجا ينظرون الى هذه الحرب بمنظار يختلف عن منظارنا . ادرج الايطاليون فى جيشهم أعداداً هائلة من القبائل الناطقة بالتقرى ، غالبيتهم من التقرى والقبائل المتفرعة منها . هذه قبائل تغتبر عدوا تقليديا للهدندوة وتحركها من خور بركة متجهة نحو منطقة عطبرة هو تهديد لأراضى الهدندوة ولا يسمح به فى أى حال من الأحوال . هذه الحرب التى وقف فيها الهدندوة بجانبنا لم يكن الغرض منها الحد من تقدم الايطاليين ، بل كانت فى نظرهم امتداداً لصراع قديم مع البنى عامر لوقف توغلهم داخل أراضى الهدنـدوة . ومن هذا المنـطلق فإن الغرض الرئيسى لهذه الحرب ، فى نظرهم ، هو حماية أراضى القبيلة ، وإن تزامن ذلك ، حتى من قبيل الصدفة ، مع الهدف البريطانى لهزيمة الايطاليين ودحرهم . وما أن وضعت تلك الحرب أوزارها وتمت هزيمة الايطاليين وحلفائهم حتى شعر الهدندوة بأنهم حرموا من جنى ثمار ذلك النصر الذى تمثل فى نظرهم على أنه انتقام ومطاردة للبنى عامر ونهب غير محدود لابقارهم .

من المعلوم أن القبائل الرعوية لا تميل عادة الى العمل الشاق ، حتى وإن كان ذلك لخدمة قطعانهم الثمينة . ولكن البجا ، وعلى حسب تجاربى الخاصة ، فاقوا كل التصورات . فهم لا يقومون بأى جهد عضلى ، بل يفضلون أن يتضوروا جوعاً من أن يقوموا حتى بجهد بسيط قد يقيهم من الجوع والحاجة . صحيح أن الامرأر يشكلون الجزء

الاكبر من العمالة فى ميناء بورتسودان ، ولكن فى الجانب الاخر نجد ان البجا يوكلون زراعة القطن فى طوكر ودلتا القاش الى الاريتريين والافارقة من افريقيا الغربية ، وهمهم الرئيسى فى هذه الناحية ينحصر في الحصول على الدخل علاوة على تحريض حيواناتهم فى الدخول الى المزارع حيثما سنحت الفرصه لذلك . وحتى فى مجال الرعى فهم يعتمدون على التقرى ، الذين هم أنفسهم من المجموعات البجاوية القديمة ولكنها تعودت منذ القدم على أعمال الرق والعمل بأجر زهيد .

قد يستهلك البجاوى اليوم كمية من الحبوب اكثر مما يستهلكه اجداده ، ورغم ذلك فهم لا يزرعون منها الا القليل حتى وان كانت الظروف مواتية لذلك . غير أنهم فى بعض الاحيان ، لا يمانعون القيام ببعض انواع الزراعة .

ذكر كلارك عام ١٩٣٨م فى مقالته " عادات وتقاليد البجا الشماليين " ما يلى :

عندما تهطل الامطار وتفيض الخيران منحدرة من الجبال والوديان ، يقوم البجاوى ببعثرة بعض البذور من غير أن يبذل جهداً فى حرث الارض أو تسويرها ، ثم ينتظر ثلاثة اشهر لحرثها . بعد ذلك تأتى فجأة بعض قطعان الجمال السارحة وتقضى على جميع الزرع ، وهنا يتحرك صاحب الأرض ليطلب تعويضاً مبالغاً فيه نظير زراعته التى قضى عليها " .

يمكن تلخيص ذلك فى أنهم يريدون ان يتمتعوا بدخل لم يبذلوا فيه حتى أقل جهد يذكر حتى وأن كان ذلك من أجل ماشيتهم التى يعتزون بها . فهم يربون سلالات جيدة من الجمال ، اضافة الى القطعان الكبيرة من الماشية فى المناطق الجنوبية . ورغم ذلك فهم لا يولون أهمية تذكر لتجارة الحيوانات الا على مستوى ضئيل كبيعهم بعض الجمال للبوليس أو فى أسواق الماشية فى مصر .

لقد تركوا تجارة الجمال الرابحة مع مصر حكراً على قبيلة الرشايدة الغجرية التى هاجرت حديثاً من الحجاز الى السودان . وفى الوقت الحاضر فإن البجا لا يمانعون القيام بأى عمل ، غير ان مشكلتهم الرئيسية انهم قنوعين بالدخل البسيط كالذى يتحصلون عليه من زراعة هكتار أو هكتارين من القطن أو ما يتحصلون عليه مقابل عملهم لاسابيع قليلة

فى ميناء بورتسودان . من هذا الدخل يشترون بعض الحيوانات ، ويعتزلون العمل بعد ذلك ليتفرغوا للراحة فى باديتهم الى أن تدفعهم الحوجة الى العمل مرة أخرى .

مما لاشك فيه أن خشونة ارض البجا وصعوبة المعيشة فيه يجعلان محاولة النهوض بالمنطقة وسكانها أمراً ليس باليسير . ارتبط العمل فى ذهنهم بالماضى وحروبه حيث كان العبيد والاسرى يقومون بكل الاعمال . ويضيف كلارك هنا مرة أخر :

أنهم يجلسون تحت ظلال أشجار السنط الشحيحة ، يراقبون من على البعد حيواناتهم وهى ترعى وتسرح ، ويساورهم شعور عميق بأنهم يملكون مساحات غير محدودة من الارض مما يغنيهم عن العمل والحوجة .

قد ينتج هذا الشعور عن غباء محض ، غير أن البجا ابعد ما يكونوا عن الغباء كما يتصوره البعض . اذ ان شعورهم الكثيفة تغطى أذهانا وقادة ولكنها غير مستغله ويكفى ان لغتهم الغنية بالقواعد ومفردات الخيال دليل على أنها ليست لغة أغبياء ، بل أنها تنم عن ثقافة متكاملة وحضارة ناضجة . فهـم يتميزون بمقدرة عالية فى سرد القصص والاساطير . وتتصف كلتا اللغتين ، البداوييت والتقرى ، بذخيرة ضخمة من الفصاحة والبلاغة ، تتجلى مقدرتهما اثناء النقاش والحديث اللذان يدوران فى أوقات الفراغ تحت ظلال الاشجار ، وحول الابار أو حول فناجين القهوة فى الامسيات .

قد نمى شعور لدى بعض الناس بأن البجا أغبياء وذلك بناء على عدم تفوقهم فى التعليم المدرسى فى العشرين عام الماضية والتى بذلت فيه الحكومة كل جهدها لتغيير هذه الصورة العالقة بالاذهان . يعتقد البعض ان ذلك راجع فى المقام الاول الى صعوبة لغة الدراسة ، وهى العربية . قد يشكل هذا الرأى جزءاً من الحقيقة ، ولكن فى رأيى أن الامر يتعلق بعدم اكتراث البجاوى وعدم رغبته فى التعامل مع أى شئ يجعل بينه وبين ما جلب عليه من حياة رعوية طليقة . قد يستوعبون بعض الاراء والافكار ، لكنهم قد يفشلون فهم تفاصيلها الدقيقة . أنا على اعتقاد جازم بأنهم سوف لن يتطوروا فى المستقبل ما لم تبذل مساع جادة فى رفع مستواهم المعيشى ، كما هو الحال فى القاش ، أو تغيير بيئتهم بصورة جذرية وهذا أقل الاحتمالات توقعاً .

فقد البجاوى كل الثقة فى الاجنبى وذلك بسبب عزلته التى امتدت لقرون ، فضلا على أن جميع الذين ذهبوا الى أرض البجا كان هدفهم الاول هو استغلال المنطقة وسكانها . فمثلا كان الفراعنة يبحثون عن الذهب والبطالسة ، علاوة على الذهب ، كانوا يرغبون فى الافيال لإستعمالها فى غزواتهم فى آسيا . ثم جاء السبئيون والحميريون بحثا للتجارة والربح وبقوا هنالك كطبقة ارستقراطية حاكمة . أما الرومان فكانوا اقل جشعاً اذ كان همهم الاول هو التنقيب عن الرخام والاحجار الكريمة الاخرى لإستعمالها لنحت تماثيلهم وزينتها . ثم جاء الغزاة العرب بحثاً عن الذهب والاحجار الثمينة وخلفهم بعد ذلك الحكم التركى المصرى الذى أسس نظاماً فريداً فى الظلم والقهر والاضطهاد لم يسبقه عليه أحد . واخيراً جاء البريطانيون ، أخر الغزاة لاقليم البجا ، الذين كانوا أقل ابتزازاً وبربرية . لكن البجاوى لم ينس تلك المواقع الحربية التى حصد فيها رجالهم بالاسلحة النارية الفتاكة دفاعاً عن الحكم المصرى الفاسد الذى حكم منطقتهم . لذلك لايستغرب مطلقاً أن تنحت فى ذهن البجاوى كراهية عميقة للاجنبى وما يمثله من ثقافة أو حضارة . لكن البجاوى توصل الان ، وبمرور الزمن ، الى حقيقة هامة وهى أن نوايانا صادقة فى اقامة حكومة نظامية ، رغم انها لم تنل مباركتهم الكاملة .

يعيش البجاوى اليوم فى تجمعات اسرية صغيرة مبعثرة هنا وهنالك فى أماكن تواجد المياه والعشب . عدم وجود لغة مشتركة بينهم وبين جيرانهم أصبح يشكل حائلاً منيعاً لعلاقات حميمة ورفيعة .

يقول ساندرز فى ذلك " إن البجا يمثلون مجتمعاً بسيط التماسك والترابط تكون فيه السلطة المطلقة للاب . وهم يجوبون الفيافى والسهول بحثاً عن الكلأ . طور هذه المجتمع ، عبر ممارساته الطويلة ، نظاماً اجتماعياً خاصاً به لفض نزاعاته ونابع من بيئته ومواكب لتقاليده ومفاهيمه المتمثلة فى الصبر والتأجيل " .

إن صعوبة لغتهم وعدم رغبتهم فى التحدث بغيرها ، اضافة لكراهيتهم المتأصلة للأجنبى ، جعل إدارة منطقتهم شيئاً أشبه بالمستحيل . تزداد المشكلة تعقيداً بسبب النقل المفاجئ لضباط وإدارى المنطقة الى بقاع أخرى من السودان ، مثل منطقة الفور والأزاندى وغيرها قبل ان تستثمر جهودهم فى فهم المنطقة وسكانها ولغتهم . انه مما لاشك فيه أن

خمسة أو سته أعوام ليست بالمدة الكافية لإدارى متعاطف مع البجا ومتقن للغتهم فى أن يستفاد من معرفته هذه فى خدمة الادارة التى يمثلها والمواطنين الذين يحكمهم قبل أن ينقل الى منطقة أخرى .

أيضاً ليس من الغريب فى أن البجاوى - بكل ما يمثله من تحفظ ومراوغة وعناد مدعومين بلغة مبهمة - أن يخلق شعوراً باليأس والاحباط فى نفوس كثير من حاكميه ، غير ان هنالك فئة صغيرة خدمت بينهم وتركتهم غير اسفة على ذلك وفى الجانب الأخر بقيت هنالك فئة أخرى عاودها الحنين الى تلك الرمال النظيفة فى عيتباى أو تلك القمم الجبلية الشاهقة فى أوج موسم امطارها الشتوية ، أو حتى تلك الشعاب والمتعرجات الغبراء فى القاش وخور بركة التى يجوبها ذلك البجاوى البدوى الذى تغطى رأسه كتلة من الشعر ، تراه وقد وضع عصاه على كتفيه بدون إكتراث لما حوله وقد ترك جمله بالقرب منه وتتحرك معزاته بين رجليه فى صورة أشبه بالكلب الأليف .

الفصل الثانى

البجا أرضهم وقبائلهم

الأراضى الغبراء الملونة كالنمر — فرييا ستارك

رغم أن أغلب قبائل البجا لها المام بالبحر ورغم أن جمالهم وأبقارهم ترعى بالقرب من الساحل فى بعض فصول السنه ، الا أن قبائل البجا ، بجميع فروعها ، ظلت قبائلاً برية ليس لها تعامل كبير بالبحر . وبالتالى فهم ليست لهم معرفة بالقوارب ، الا أن أجداد بعضهم قد يعدون من أكلة السمك . لم يستفيدوا من السمك ، الذى تعج به سواحلهم ،كسلعة تجارية ، بل ويتأففون من أكله حتى حينما تدعو الحوجة الملحة لذلك . ينظر البجاويون الى البحر بنوع من الحذر والرهبة بسبب ما جلبه لهم من الاجانب الذين غزوا ارضهم وديارهم . يمثل البحر ، الذى يمتد مئات الأميال من مرسى شعاب بالقرب من الحدود المصرية الى رأس قصر جنوبا ، حدودهم الشرقية . وتمتد بمحازاة ذلك الساحل سلسلة من التلال التى تكون هضبة جبلية ضيقة ، تتحول الى سهول منبسطة فى عيتباى وأودى وتبيلول . ترسم هذه السلسلة الجبلية الضيقة حاجزاً طبيعياً بين النيل ونهر عطبرة من جهة والبحر من جهة أخرى . تشاهد كل المنطقة الممتدة من حلايب الى عطبرة إرتفاعاً حاداً فى درجة الحرارة فى فصل الصيف مقروناً بعواصف رملية خانقة تتأثر بها حتى ، لبضعة أيام ، المرتفعات الباردة فى أركويت . غير أن هذه العواصف الرملية تهب فى طوكر بإنتظام من منتصف يونيو الى سبتمبر وبكثافة لايتصورها العقل .

هذه هى أرض البجا ، تحتوى على ١١٠ر٠٠٠ ميلاً مربعاً من الجبال والسهول والاراضى الساحلية ، يشكل غالبيتها الصحارى القاحلة والصخور العارية . إنها أرض جدبة غير مضيافة ، الا فى فترات محدودة من فصول السنة . ومن العجائب أن تعرف ان هذه الارض القاحلة التى تستحيل الحياة على ظهرها تستوعب حوالى ٢٨٠ر٠٠٠ من الرعاة الذين يعتمدون اعتماداً كاملا على قطعانهم المؤلفة من الجمال والابقار والماعز والضأن ، علاوة على الزراعة الموسمية المحدودة فى الصحراء الشمالية يضاف الى ذلك بيعهم لبعض الحيوانات والفحم فى الاسواق المصرية ، مثل اسوان . ولكن القبائل على

الجنوب كالامرأر يكونون اكثر حظاً إذ أن بوسعهم أن يجدوا فرص عمل فى ميناء بورتسودان وأن يستفيدوا من زراعة القطن فى طوكر والقاش . ثم أن الامطار على الجنوب اغزر واكثر انتظاماً مما يوفر فرصاً للرعى وزراعة للحبوب التى تكفى حاجتهم . بصفة عامة يمكن أن يقال أن هذه المنطقة شهدت للثلاثة أو الاربعة ألف سنة الماضية جواً جافاً لم يتبدل كثيراً الى يومنا هذا . قد تكون الظروف البيئية أحسن مما كانت عليه فى الماضى ، ولكى التدهور البيئ اشتدت حدته أخيراً بسبب وفود الجمل الى المنطقة ، علاوة على تجارة الفحم . عاش البجا تحت هذه الظروف القاسية لأربعة ألف عام وكان عليهم أن يبتكروا نوعاً من المعايشة والتأقلم لهذه الظروف .

تقع الى الشمال وخلف بورتسودان تلال وسهول عيتباى التى تتمتع بأمطار صيفية شحيحة ومتقطعة لا يتعدى معدلها السنوى البوصتين ، ان لم يكن أقل من ذلك . الطبيعة هنا قاسية حيث تغطى الارض بصخور ورمال تتخللها بعض الأودية التى توفر مرعى لقليل من الماعز والجمال التى يعتمد عليها عدد غير كثير من السكان . ترتفع الارض هنا تدريجيا عن النيل لتشكل قمما جبلية تواجه الشريط الساحلى الضيق على البحر الأحمر . لا تختلف الظروف المناخية فى المنطقة الساحلية عن المناطق الأخرى ، الا أذا إستثنينا الامطار الشتوية التى تهطل بإنتظام فى تلك المنطقة . لذلك نجد أن منطقة القنب – التى تمتد من حلايب شمالاً الى طوكر جنوباً – توفر ظروفاً رعوية ممتازة تجذب مجموعات كبيرة من القبائل البجاوية وقطعانهم الذين يبقون فى تلك المنطقة الى فترة الجفاف التى تمتد الى شهر مارس أو أبريل . بعد ذلك يعودون ادراجهم الى السهول والمرتفعات الجبلية التى تشهد قمة مجدها فى فصل الشتاء . وبالتالى نجد قمم جبال ايربا واسوتربا وإلبا ، شمال بورتسودان ، تضم أودية تتخللها مياه عذبة وظلال وافرة وعشب غزير على مدار السنة . أما المناطق الاقل ارتفاعاً (أقل من ٤٠٠٠ قدم) فتشهد خضرة محدودة ، فقط فى فصل الشتاء حيث تنحدر مياهها نحو ساحل البحر الأحمر .

يعتمد الانسان فى هذه الصحارى الشمالية إعتماداً كليا على حيواناته التى يعتنى بصحتها ويترحل من أجلها بحثا لافضل الظروف الرعوية لها . لا نجد هنا الترحال المكثف كالمشاهد مثلا فى الغرب ، الا فى القنب فى ظروف محدودة فى فصل الشتاء . يقتصر

الترحال هنا لمجموعات صغيرة ، أسرة واحدة أو جزءاً من أسرة تختار لنفسها مكاناً نائياً لا ينافسه فيها أحد . قد يؤدى الترحال الجماعى الى كارثة حقيقية للإنسان وحيواناته ، لذلك نجد هنا أن الترحال الاسرى هو الترحال الشائع فى مثل هذه الظروف . وهنا يقوم أعيان القبائل وشيوخها بتنظيم الملكية والحصص الخاصة بكل قبيلة .

تضاريس المنطقة نفسها هى التى تلعب دوراً رئيسياً فى عزلة البجاوى ووحدته . تتخلل هذه الرقعة الواسعة والجافة خيران صيفية تتيح ظروفاً رعوية وزراعية محدودة توفر المعيشة لاسر مبعثرة هنا وهناك مما يعمق من روح العزلة والوحدة بين القبائل البجاوية . فهم انعزاليون حتى لافراد قبيلتهم الذين لا يشاركونهم المرعى ، ومن ثم تتحول هذه الروح الى كراهية عند احتكاكهم مع عناصر وسلالات أخرى . يعيش فى مثل هذه المناطق الهامشية بشاريى أم على وبعض من بشاريى أم ناجى ذوى التقاطيع الجميلة والذين يشكلون مجموعات رعوية فى بيئة شديدة الفقر . تعنى هذه القبائل برعاية السلالات المشهورة من الجمال مثل بانقير وكلايواو . نجد على الجنوب من هنا الامرأر الذين يعيشون فى ظروف مماثلة للمنطقة الشمالية ولكنهم اكثر استقلالا واستعداداً للاستقرار فى البيئة الحضرية . قد يكونون من أكثر المجموعات البجاوية نقاءاً اذا ما قورنوا بالهدندوة والبشاريين ، علاوة على أنهم يتحدثون بلهجة بجاوية كلاسيكية رصينة . إشتهرت هذه القبيلة بالشجاعة والاقدام لا يماثلهم فيها أحد من القبائل الأخرى .

تقع على جنوب بورتسودان مباشرة تلال وأودية سنكات وأركويت . نجد على الجنوب والغرب من هنالك قمة جبل ونربا – أخر معقل لعثمان دقنة – الذى تقطنه اكثر قبائل الهدندوة وحشية . وينحدر سطح الجبل تدريجياً نحو سهول أودى وتبيلول التى تتميز بطقس معتدل جميل ومرعى غنى مفضل لقبائل الهدندوة فى فصل الصيف . يشكل الهدندوة الشماليون مجموعات جبلية لا تختلف كثيراً عن الأمرأر والبشاريين فى اسلوب حياتهم وهم يعيشون فى الجبال المنتشرة بين سنكات والمنحدرة نحو درهيب وخور بركة ، وهنالك يلتقون بغالبية القبيلة فى القاش ونهر عطبرة . قسمت هذه القبائل لأسباب إدارية الى ثلاثة مجموعات . خط القاش وخط الحدود وخط نهر عطبرة ، اضافة الى هدندوة المناطق الجبلية الذين يمثلون خط أودى وخط الشمال .

يعتبر الهدندوة اليوم أكبر القبائل البجاوية عدداً وقوة وكذلك قسوة ويفتقدون لروح الدعابة والفكاهة التى يتحلى بها الامرأر والبشاريون . فهم يشتهرون برعاية الابقار اكثر من الجمال ويسيطرون على عائد زراعة القطن فى القاش ، فضلا على مشاركتهم لبشاريى أم ناجى فى السيطرة على الشاطئ الشمالى الشرقى لنهر عطبرة ، أى المنقطة الواقعة بين كبرى البطانة وسيدون . يمد نهر عطبرة هذه المنطقة سنويا بالماء الذى مكن البشاريين من استغلال جزر وشواطئ النهر فى الزراعة . رغم كل ذلك ظلت غالبية الهدندوة هنالك رعوية وأصبحوا يفضلون الرعى النهرى الذى يشكل مصدر نزاع مستمر مع الشكرية على الشاطئ الاخر من النهر .

توجد فى كسلا والمناطق المحيطة بها قبائل الحلنقة وعلى الجنوب من هنالك وعلى شواطى نهر سيتيت يوجد الحمران الذين تميزوا بنفوذ وسلطان فى الماضى . يتراوح المعدل السنوى للأمطار فى هذه المنطقة أربعة عشر بوصة ، والظروف الرعوية هنا ممتازة وتستغلها قبائل الرشايدة والبنى عامر . تخلت القبائل هنا عن الرعى وأصبحت اكثر ميلا الى الاستقرار .

اما القنب – منطقة الرعى الشتوى على ساحل البحر لأحمر – فيمتد الى أن يصل الى النقطة الفاصلة بين خور بركة ودلتا طوكر . الاخيرة – مثل القاش – تعتبر منطقة هامة لزراعة القطن الذى يذهب عائده الى تلك القبائل التى تتخذ من طوكر عاصمة لها . هذه القبائل هى الارتيقة والاشراف والكميلاب والنوراب والشعاياب والحسناب ، وتجمع كلها تحت ما يسمى بالقبائل الأخرى . هذه ليست قبائل بجاوية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة رغم أنها عاشت بينهم منذ القرون الوسطى وتزاوجت معهم وأخذت عنهم لغتهم وعاداتهم . تستفيد من عائد قطن طوكر قبائل أخرى مثل الهدندوة والبنى عامر وجزء يسير من الأمرأر .

تتغير معالم الطبيعة على الجنوب من دلتا طوكر مرة أخرى ، تصبح الجبال هنا اكثر عدداً وكثافة وتتدرج فى الارتفاع الى أن تصل الى ٩٫٠٠٠ قدم فى همو يبت على الحدود السودانية الاريترية ، وتقع خلفها هضبة نجار نوش . تمتاز هذه المنطقة بطقس رائع بفضل الامطار الشتوية . تكثر هنا ينابيع المياه وتنمو الزهور الجميلة والاعشاب الغزيرة .

تعتبر هذه المنطقة فى ديسمبر ، فى بداية هطول الأمطار الشتوية ، جنة الرعاة حيث تتوافد القبائل المختلفة بقطعانها من جميع الاصقاع ، بما فى ذلك اعماق اريتريا شرقا الى القاش غرباً . المركز الادارى لهذه المنطقة هو عقيق ، ذلك الميناء الصغير الذى تستبدل فيه الجلود والسمن بالذرة والقهوة وغيرها من احتياجاتهم البسيطة . غالبية سكان هذه المنطقة هم من القبائل الناطقة بالتقرى المنضوين تحت نظارة البنى عامر ، ويشمل ذلك الألمدا والأسفدا والولينوهو والحميسان وعد فاضل والابهشيلا وغيرها من القبائل الصغيرة التى كانت تخضع لوقت قريب لنفوذ قبيلة النابتاب . تعيش بين هذه القبائل وفى المرتفعات المحيطة بها مجموعة من القبائل الناطقة بالبداوييت والتى تختلف عنهم أصلاً وتاريخاً اذ أنها تنحدر من أصول حامية . تشمل هذه المجموعة اللبت وعد كوكوى وبيت عوات واللبس .

قبل أن نختتم هذه الفصل للدخول فى الفصل الذى يليه الخاص بأصل البجا وما يكتنف ذلك من غموض ، لابد من التذكير على أن القبائل التى تم ذكرها فى السابق يمكن تقسيمها - بصورة رئيسية - الى ثلاثة مجموعات متميزة . تضم المجموعة الأولى الامرار والبشاريين والتى يدعى كلاهما نسباً الى الكواهلة وبعض القبائل العربية الأخرى . وفى الجانب الاخر نجد أن الهدندوة دخلوا فى مصاهرة مكثفة مع القبائل العربية المجاورة مثل الكميلاب والجعليين والشكرية . تغلب على هذه القبائل الثلاثة الدماء والملامح الحامية ، التى تكون أكثر ظهوراً فى فروع البنى عامر الناطقين بالبداوييت والتى يعتقد بأنها اكثرهم نقاءاً فيما يخص الدم الحامى واقلهم اختلاطاً بالقبائل الأخرى .

تتألف المجموعة الثانية من قبائل البنى عامر المتحدثين بالتقرى والتى ترجع جذورها الى أصول حامية وإختلطت منذ أمد بعيد بدماء سامية مما أكسبها لغة مختلفة وملامحا وعادات مميزة .

المجموعة الثالثة وهى المجموعة التى تضم ما يسمى بالقبائل الأخرى ، وتشمل هذه الحلنقة والحمران وبعض القبائل الصغيرة الأخرى التى يكون انتماؤها جزئياً للبجا فيما يخص الدم ولكن انتماءاً كلياً من ناحية العادات والتقاليد . تنتمى جذور هذه القبائل الى العرب الوافدين الى المنطقة منذ القرون الوسطى والذين استقروا بأرض البجا قبالة ساحل

البحر الأحمر ثم تزاوجوا معهم . هذه قبائل ليس لها وزن كبير ولكنها إرتادت مهناً مثل الزراعة والتجارة ، لم تالفها بقية البجا وبرعوا فيها وأشتهروا بها . عاشت هذه القبائل فى رقعة منزوية من ارض البجا كدلتا طوكر مثلا التى اثروا من عائدها ، ولولا حماية الحكومة لهم لاكتسحهم الهدندوة الذين تحسنت أوضاعهم مما جعلهم أكثر تطلعاً لأرض رعوية جديدة ولمستوى معيشى أفضل .

والان قد يسأل سائل ما هو الفرق بين القبائل التى صنفت بأنها قبائل بجاوية صرفه وبين تلك التى لم يشملها ذلك التصنيف . وللحقيقة فإن المجموعة الأخيرة قد تزاوجت مع البجا لفترة تزيد على الالف عام وبسبب هذا الاختلاط فإنها اكتسبت عنهم اللغة وكثيراً من العادات ، وفى الجانب الأخر فإن قبائل البجا التى صنفت بأنها بجاوية صرفة لم تتأثر أصولها الحامية كثيراً بالدماء السامية ، وبالتالى فإن هنالك بعض الفروقات ولكنها غير كافية للتمييز بين المجموعتين .

جزءُ من الخلاف يكمن فى الملامح الجسدية . إذا لايشك أحد من ذوى المعرفة بالقبائل البجاوية بأن الارتيقة ليسوا أى شئ غير انهم عرب ، أو بالتحديد بأنهم سلاسلة حميرية . أيضاً يمكن ارجاع الكميلاب ، من غير أى تردد ، الى الكواهلة أبناء عمومتهم بكردفان ، والحلنقة الذين تزاوجوا كثيراً بالعرب اصبحوا اكثرهم تأثراً بالدماء السامية بالمقارنة للقبائل الاخرى . أما الشعاياب ، الذين يمثلون ابناء عمومة للارتيقة ، فيصعب تصنيفهم من غير معرفة تامة ، بأنهم ليسوا الا قبائلاً بجاوية صرفه .

عموماً فإن القبائل التى صنفت بأنها قبائل شبيهة بالبجا هى تلك القبائل ذات الاصول العربية المعروفة والتى لا نجد فيها أى صفة من الصفات الخاصة بالدم الحامى .

الفصل الثالث

أصل البجا

ينسب البجا الى كوش بن حام وهاجروا الى السودان بعد الطوفان

من تاريخ الامرأر

قد يصعب التسليم المطلق بالعبارة السابقة التى وردت على لسان أحد مؤرخى الامرأر . غير أن جميع المصادر تؤكد على الأصل الحامى للبجا وانهم هاجروا فى وقت مبكر جداً من جنوب الجزيرة العربية وعبروا البحر الأحمر واستقروا فى شرق افريقيا بين النيل والبحر ، وعن أصل البجا يقول جونستون ما يلى :

يعيش البجا الان فى نفس المكان الذى كانوا يعيشون فيه عندما احتلت الاسر المصرية وادى النيل وتقدموا عبر الشريط الضيق من مصر نحو النوبة السفلى ومدوا نفوذهم فى الصحراء المحيطة بالنيل .

توضح النقوش والرسومات الحجرية فى الصحراء الشرقية والتى تم التحصل عليها فى الوقت الحاضر بأن السكان الاوائل لهذه المنطقة يمثلون سلالة بدائية من الصيادين المتسلحين بقوس كبير . كانت لهم معرفة بالحيوانات الوحشية مثل الافيال والتماسيح والزراف ولم يتمتعوا بملكات فنية تذكر .

تلت ذلك سلالة حامية من رعاة الأبقار (الاجداد الاوائل لبجا اليوم) استوطنت الصحراء ووادى النيل معاً . وكسابقيهم إشتهر هؤلاء أيضاً بصيد الافيال والوعول والظباء والزراف والنعام وكانوا يستعينون لذلك بأقواس على هيئة الرقم الانجليزى ٣ اضافة للرماح والسهام ذات المؤخرة المعدنية . كانوا يتمتعون بحس فنى لابأس به لأن رسومهم الفنية أظهرت قدراً عالياً من الابداع الفنى .

لذلك فإنى اختلف مع كين الذى يرى أن البجا هم السكان الاصليين للصحراء الشرقية ، وبالعكس فأنا أرى ، بناءً على ما هو متوفر الان من معلومات ، بأنهم يمثلون سلالة غازية وفدت الى المنطقة حوالى عام ٤٫٠٠٠ قبل الميلاد ، وقطعاً قبل عام ٢٫٥٠٠ قبل الميلاد حيث عرفوا لأول مرة للاسرة الفرعونية السادسة .

وفى الجانب الأخر يرى سيليغمان بأن البجا (وبالذات بعض مجموعات البنى عامر الناطقة بالتقرى) يمثلون النموذج الحاضر لقدماء المصريين وفى ذلك يقول :

لعله من المقنع إعتبار البنى عامر ، أقل قبائل البجا تغيراً ، الممثلين الحاليين لقدماء المصريين (والنوبة) وأنهم لم يخضعوا لكثير من التغيير على مدى السبعة آلاف سنه الأخيرة .

تم التوصل لهذا الرأى من خلال مقارنات لبعض القياسات الجسدية والتى عضدت ببعض المعلومات المحلية التى لا يأخذ بها كثيراً . ويضيف سيليغمان ومعاونوه بأن بعض قياسات قامة ورأس البنى عامر يشبهون الى حد كبير تلك القياسات المأخوذة من نماذج من قدماء المصريين . وفى نفس الوقت فإن قبائل البجا الأخرى مثل الهدندوة والأمرأر والبشاريين اعطت قياسات مختلفة ربما لإختلاطهم بعناصر أجنبية أخرى . أخذ الجدول التالى ، مع بعض التعديلات ، من مقالة لميرى نشرت فى مجلة الجمعية الملكية للسلالات وهو نفسه ملحق لمقالة سيليغمان التى نوه لها :

القبيلـــة	عدد الحالات	طول الرأس (م م)	عرض الرأس (م م)	طول القامة (م)
المصريون القدماء من نجع الدير	٤٥	١٨٤ر٨	١٣١ر٥	١ر٦٣٠ (تقريباً)
مجموعة ج من النوبة الوسطى	١٢٣	١٨٣ر٠	١٣٤	—
النبى عامر	٥١	١٨٣ر٥	١٣٣ر٧٥	١ر٦٤٣
الهدندوة	٤٠	١٨٢ر٨	١٣٥ر٨	١ر٦٧٤
الامرأر	١٦	١٨٣ر٦	١٣٨ر٩	١ر٦٦٦
البشاريين (علياب)	٣٠	١٧٧ر٧	١٣٥ر٦	١ر٦٨٠

يستخلص من هذا الجدول بأن الهدندوة أطول من البنى عامر بمقدار بوصة واحدة والبشاريين أكثر من ذلك . أما أطوال الرأس فليست هنالك فروقات تذكر (بإستثناء البشاريين) . غير أن هنالك فرق واضح فى عرض الرأس ، إذ أن عرض رأس البنى عامر أقل بكثير مما يجعلهم أكثر قربا لقدماء المصريين . ويرجع سيليغمان الفروقات فى قياسات

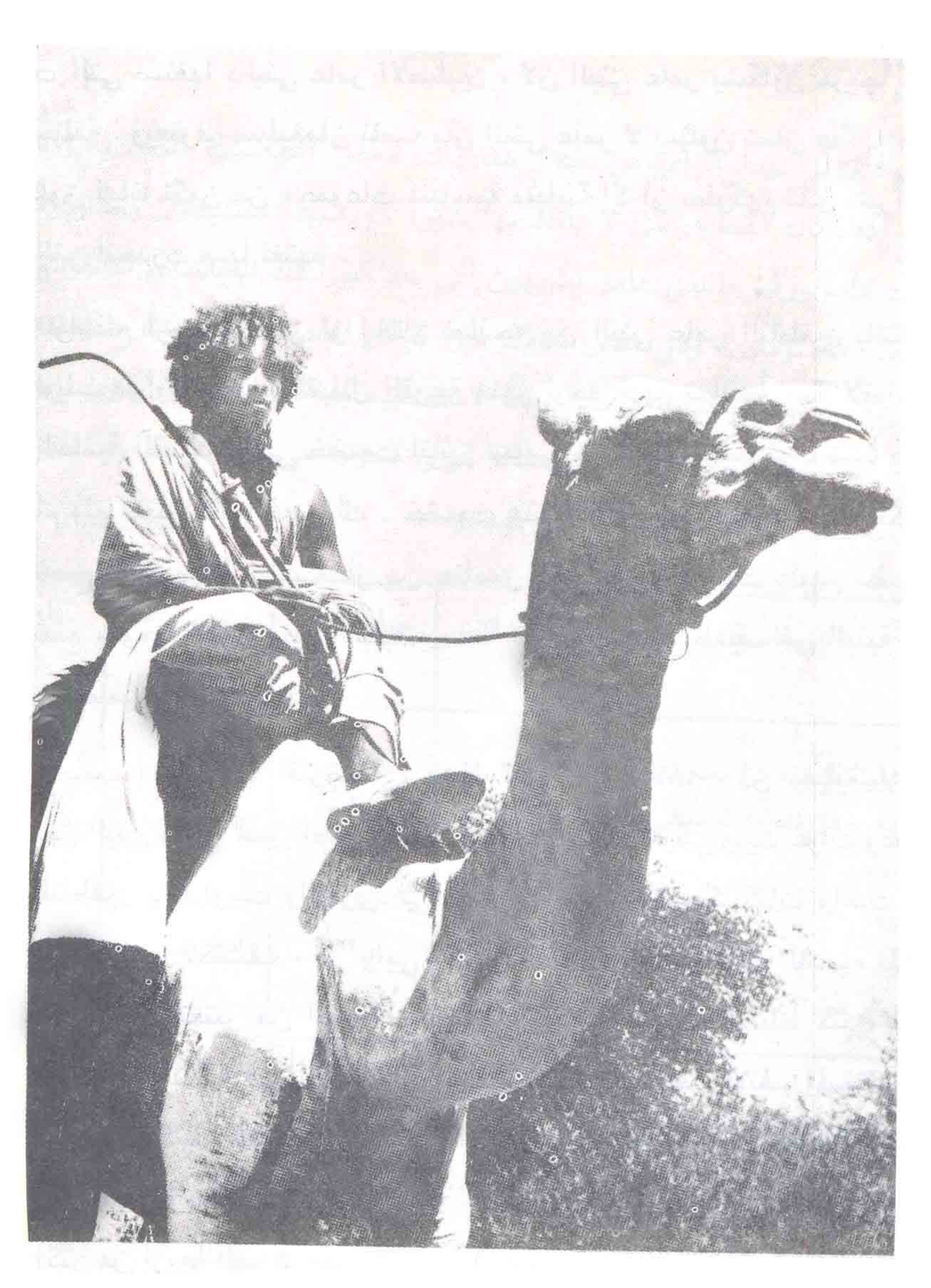
القبائل البجاوية الاخرى لتأثير من الشمال وفى حالة الهدندوة ربما يكون ذلك لإمتزاجهم ببعض العناصر الزنجية .

يدعى سيليغمان ان القياسات التى أخذها من البنى عامر كانت مختارة من المجموعة الناطقة بالتقرى أو من البنى عامر الاصليين كما يقول . غير إنه لم يحدد بالضبط المجموعات التى صنفها بالبنى عامر الأصليين ، لان البنى عامر يشكلون مزيجاً قبلياً من أصول مختلفة . ويعترف سيليغمان نفسه بأن البنى عامر لا يمثلون شعباً واحداً متجانساً وانما يمثلون كياناً تكون من مجموعات سياسية متباينة الا أن سلوكهم تأثر كثيراً بالثقافة السامية التى انحدرت منها لغتهم .

ومن الواضح ان سيليغمان لو إختار نماذجه من البنى عامر الناطقين بالتقرى مثل الألمدا والويلينوهو والأسفدا والقبائل القريبة منهم لوجد فيهم نماذجاً حية لأقوام يمثلون الاصول الحامية القديمة والتى خضعت لتأثير سامى من سبأ وحضرموت منذ ٢٫٥٠٠ - ٣٠٠٠ عام ولم تتغير كثيراً بعد ذلك . خضعت هذه القبائل بعد سقوط مملكة أكسوم فى القرن التاسع الميلادى الى إستعمار من عناصر غير حامية فرضت عليهم نظاماً طبقياً صارماً يمنع بموجبه التزاوج بين الطبقتين مما نتج عنه تغيير طفيف فى البنية الجسدية لقبائل البنى عامر المستَعْبَدين .

وفى الجانب الأخر اذا افترضنا ، وهذا أقل الاحتمالات ، ان سيليغمان استقى معلوماته من البنى عامر الذين اطلق عليهم البجاويون (عد كوكى وبيت عوات وعد الخاسا وغيرهم الناطقين بالبداوييت والتقرى فى آن واحد) ، أو السنكاتكناب واللبت وأمثالهم المتحدثين بالبداوييت لاكتشف ، فى رايى ، اكثر النماذج الحالية شبها لقدماء المصريين . لأن هذه المجموعات تعتبر من اقدم المجموعات البجاوية التى لم تختلط كثيراً ولم تتبدل سحناتها الحامية المتمثلة فى القامة القصيرة والحنك المنبسط والانف المستقيم والشعر الاسود المتجعد والكتف العريض والخُصر النحيل والأرجل الرقيقة الممتلئة بالعضلات . وهذه مجموعة بدائية صغيرة شديدة العزلة ، غالبيتها فى اريتريا ولا يتعدى تعدادها فى السودان اكثر من اربعة الف شخص .

ويرى فولبير أن الهدندوة الذين يمثلون مزيجاً من الزنوج يعتبرون السكان الاصليين



هدندوى على ظهر جمله

للصحراء الشرقية لمصر وكانوا يعملون فى بداية أمرهم كسلالة زنجية فى المناجم وفى نفس الوقت كانوا يتاجرون مع الفنيقيين ولهم علاقة بالنوبة الحاليين بكردفان ثم طردتهم الاسر المصرية من هنالك .

نظرية فوليير هذه رغم أنها جذابة ومثيرة الا أنها تفتقد الاسانيد المطلوبة وبالتالى يظل الدم الزنجى فى الهدندوة أمراً يحتاج الى مزيد من التفسير . وفى رأيى أن الدم الزنجى لو لم يفد أخيراً الى الهدندوة لوجدنا اذاً تركيبة مماثلة له فى البجا الشماليين مثل البشاريين والأمرأر والذين لا تتوفر فيهم مثل هذه الصفات .

وعن قصر الجمجمة فى البجا الشماليين لا يستبعد سيليغمان ان يكون ذلك بتأثير عبر البحر الأحمر ولكنه يرجح ان يكون التأثير فى المقام الأول من سلالات أخرى من الشمال . وأثناء طرحه لنظريته هذه يحاول سيليغمان أن يتجاهل التسلل المستمر لعناصر سامية عبر خور بركة منذ القرن السابع الميلادى أو قبل ذلك . هذه العناصر المتسللة كانت فى تزاوج متواصل ومكثف مع البجا مما كان له الأثر الواضح على البجا الشماليين وقد يكون ذلك هو السبب الرئيسى فى القامة الطويلة والرأس العريض .

هنالك قصص وأساطير عربية متواترة تتحدث عن التسلل اليمنى الى السودان منذ القرن السابع الميلادى أو قبله . ولا يستثنى من ذلك هجرة ماقبل الاسلام من قبائل البلو أو الحدارب الى عيتباى والقنب والمعدام . وفى القرن التاسع والعاشر وفدت مجموعات أخرى من القبائل العربية الباحثة للذهب وبالذات قبيلة ربيعة التى تزاوجت بكثافة مع البجا ثم مع الكواهلة فى القرن الثالث عشر . تزامنت تلك الفترة مع وفود (عبر سواكن) قبائل صغيرة أخرى مثل الحلنقة والأرتيقة والاشراف والحسناب واستقرارهم فى مناطق مختلفة من ديار البجا واختلطوا معهم لدرجة أنهم اخذوا عنهم اللغة والعادات مما يعكس تناقضاً صريحاً لنظرية سيليغمان التى تفترض " بأن اختلاط العنصر الحامى والسامى يقود بالضرورة الى هيمنة العنصر السامى وفرض لغته ، بمعنى آخر اختلاط العنصر العربى والحامى يؤدى حتماً الى غلبة العنصر العربى " .

علاوة على ذلك فمنذ ظهور الهدندوة والامرأر والبشاريين ككيانات قبيلة مستقلة (يغلب عليها العنصر الحامى) فى القرن الخامس والسادس عشر بدأوا يتزاوجون بكثافة مع

قبائل غير بجاوية وهذه الظاهرة كانت اكثر ممارسة وسط الهدندوة . وبالمثل نجد أن بشاريين عيتباى بدأوا يتزاوجون مع العبابده وبشاريى عطبرة مع الجعليين والميرفاب . هنالك أيضاً قبائل هدندوية أخرى مثل البشارياب والجميلاب والقرعيب ترجع اصولهم الى الشكرية والجعليين والفونج على التوالى .

لذلك لم يكن غريباً ان يتوصل سيليغمان ومعاونوه من الباحثين فى بداية القرن الماضى الى تغيرات عميقة فى التركيبة العرقية للبجا ، ونكون محقين فى الوقت الحاضر ان قلنا ان البجا الآن يمثلون خلطة حامية سامية ويمكن تقسيمهم الى مجموعتين رئيسيتين . المجموعة الأولى هى المجموعة الجنوبية التى تغلب عليها الدماء الحامية ولكنها تتحدث لغة سامية ، تخلصت هذه المجموعة حديثا من إقطاع وعبودية دامتا قروناً طويلة . المجموعة الثانية هى المجموعة الشمالية ذات الدماء المختلطة والتى تتحدث لغة حامية وتتمتع بصفات وقسمات حامية اكثر من المجموعة الجنوبية . والفارس من المجموعة الشمالية لا نجد له مثيلاً وسط أفراد المجموعة الجنوبية ، الذين ان لم يتحدوا وتجتمع كلمتهم فإنه يسهل هزيمتهم والتغلب عليهم . اصبح البحث عن أصل البجا من الامور الشائكة والقابلة للنقاش والتنظير وان الدراسات الاثرية فى المنطقة قد لا تشفى غليل علماء التأريخ والسلالات عن هذه الموضوع . لان هذه الآثار شحيحة وقد لا تكون ذا قيمة أثرية .

ان القلاع الموجودة شمال بورتسودان ودرهيب يمكن ربطها بالعرب الذين وفدوا للمنطقة فى القرون الوسطى بحثاً عن الذهب . أيضاً القبور الكبيرة فى مامان ومواقع اخرى لم تعرف اصولها بعد ولكن يمكن ارجاعها الى العصور الوسطى . الآثار الموجودة فى اسادرهيب ، خلف عقيق ، قد تكون من الاهمية بمكان ومن المحتمل تم بناؤها على يد البطالسة . اضافة لذلك ان المقابر الغريبة ، على هيئة ذيل السمكة ، فى أركويت تحتاج لمزيد من البحث والتنقيب للكشف عن أصلها وتأريخها .

الفصل الرابع

أرض الذهب والبخور

(١٥٠٠ - ٥٠ قبل الميلاد)

وأحضرت معى الذهب الخالص البراق

وفرحة الفارس المغوار — فليكر

لا يعرف بالتحديد تاريخ اكتشاف الذهب فى الجبال التى تقطنها قبائل البجا ، الا أن بعض المصادر ترى أن ذلك كان فى الفترة ٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد . ويعتقد أيضاً أن أول حملة لاستغلال الذهب فى جبال البجا كانت على يد الاسرة الفرعونية الخامسة (٢٧٤٥ - قبل الميلاد) . تزامنت هذه الفترة مع حكم بيبى الثانى - ٢٦٤٤ قبل الميلاد والذى أرسل القائد سيبنى الى الجنوب والجنوب الشرقى للمنطقة التى سميت فيها بعد بأرض الالهة بنط . جلبت هذه الحملة معها الى مصر ، أضافة للعاج والذهب والجلود ، بعض الاحجار الكريمة والصمغ والبخور التى كان لها دور هام فى الطقوس الدينية والاعمال السحرية التى كانت تمارس فى مصر القديمة . وهكذا تواصلت الحملات والرحلات التجارية بين التقرى وموانى وادى النيل حيث درت أرباحاً مجزية من تجارة العطور واللبان والصمغ للسبعة قرون اللاحقة . اشهر هذه الرحلات كانت حملة الملكة حتشبسوت ملكة الاسرة الثامنة عشر . تمكنت هذه الحملة من اكتشاف منطقة البنط حوالى ١٤٥٠ قبل الميلاد وجلبت معها كمية ضخمة من البضائع التى إحتوت على الآتى :

مجموعة كبيرة من الاخشاب والاعشاب العطرية ، شجر المر وصمغه ، الابنوس ، العاج الخالص ، ذهب آمو الاخضر ، شجر القرفة ، بخور حجرية وشجرية ، مواد التجميل المختلفة ، القرود بأنواعها ، الكلاب ، الجلود والفهد الجنوبى .

وفى نفس الفترة ابدى الفراعنة اهتماماً اكبر فى توطيد أواصر التجارة بين جزر البحر الأحمر وجزيرة سان جون التى تزدهر فيها تجارة الأحجار الكريمة والزبرجد والتوباز الحقيقى اضافة لذلك كان هناك طلب متزايد لدروع السلاحف ، هذه التجارة التى بدأت تكتسب شهرة متزايدة حتى القرون الوسطى .

شهدت مناجم النوبة والصحراء الشرقية ، بالقرب من الحدود السودانية المصرية الحالية ، نشاطاً متزايداً أثناء حكم الامبراطورية الوسطى (الاسرة الثانية عشر - الاسرة الرابعة عشر ، ٢٠٠٠ - ١٥٨٠ قبل الميلاد) . فى تلك الفترة بالتحديد عرف البجاوى لأول مرة لدى الاسرة الثانية عشر حيث ظهرت صورته فى أحدى لوحات المقابر فى مير بمصر العليا . كانت هذه الصور لأشخاص يتميزون برشاقة الساقين وإستقامة الأنف وضمور البطن ووسعة الصدر وتعلو رؤوسهم كتلة كثيفة من الشعر - كل ذلك مانراه مطابقاً لبشاريي أو هدندوة اليوم .

لم يكن انتاج الذهب فى فترة الاسرة الخامسة عشر والسادسة عشر بالمستوى المطلوب . غير أن مجئ تحتمس ، فرعون الاسرة الثامنة عشر حوالى ١٤٢٠ قبل الميلاد ، أعطى دفعة وطاقة جديدة للعمل بمناجم الذهب فى المنطقة . أولت هذه الاسرة إهتماماً خاصاً بالتنقيب عن الذهب حيث عينت لهذه المهمة حاكماً خاصاً سمى " بالحاكم القبطى لأرض الذهب" . وتأكيداً لاهمية الذهب قيل أن دخل تحتمس الثالث من ذهب النوبة والاقليم الشرقى وصل الى ٢٤٠٠ رطلاً من الذهب الخالص . وهكذا بدأ الذهب يحتل المرتبة الأولى بالمقارنة للفضة التى كانت لها الصدارة فيما قبل .

إنخفض انتاج الذهب فى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد إذ تراجع انتاجه الى ادنى مستوى ليصل الى ٦٠٠ - ٨٠٠ رطل فى العام . غير أن مجئ سيتى الاول ، الاسرة التاسعة عشر ، ١٣٢٠ - ١٣٠٠ قبل الميلاد ، كان حافزاً جديداً لرفع انتاج هذه السلعة الهامة . وقد بلغ من أهتمامه انه وجه حملات استكشافية جديدة نحو الجنوب للبحث عن مناجم جديدة فى المنطقة . كما حاول أيضاً ، ولكن بدون جدوى ، تطوير مناجم درهيب فى وادى العلاقى . اضافة لذلك يرجع له الفضل أيضاً فى وضع اقدم خارطة فى التاريخ لمناجم درهيب ، وادى حمات ، فضلاً عن تحسين طرق المواصلات بين منطقة المناجم ووادى النيل وذلك بحفر بعض الآبار على طول الطريق .

تواصلت بعثات التعدين مع رمسيس الثانى ١٣٠٧ - ١٢٣٣ قبل الميلاد الذى أمر بحفر بئر جديد واصلاح البئر القديم لتوفير مزيد من الحماية لقوافل الذهب المرحل الى ممفيس . أمر امنمحت الثالث بناء قلعه فى دكا على الطريق الذى يربط بين النيل ووادى العلاقى .

يتواجد فى جبال البحر الأحمر ، وبالتحديد جنوب الخط الحديدى بين بورتسودان وعطبره ، اكثر من ٢١ منجماً هاماً تم تحديدهم فى الاونة الاخيرة . تتكون هذه المناجم من اعمده طويلة يصل إرتفاعها الى اكثر من ١٥٠ قدم ودعمت فى أعلى بأخشاب سميكة لمنع أى خلل فى مدخل المنجم . يتم شحن الذهب فى مطاحن يدوية ملحقة بطاولات بدائية ولكنها فعالة لتنظيف وتنقية الذهب . اثار هذه التقنية لازالت موجودة الى يومنا هذا وقد يرجع تاريخها الى العرب الذين استغلوا هذه المناجم . تميزت الظروف التى كان يتم فيها استخراج الذهب بكثير من القسوة والارهاب ، حيث ان الفراعنة كانوا يرسلون للعمل فى تلك المناجم اعداءهم السياسيين والمجرمين واسرى الحرب وكل من لم يرغبوا فى وجوده داخل حدود مملكتهم . هذه المجموعة كانت تعمل تحت سياط المشرفين القساة الذين لم يكن لهم هم غير استمرارية استخراج الذهب مهما كلف ذلك . الحقت المناجم بحاميات تشرف على حمايتها والحفاظ عليها . فمثلاً نجد ان بعثة رمسيس الثالث (حوالى ١١٨٠ قبل الميلاد) التى ارسلت الى الصحراء الشرقية بحثاً للذهب ضمت ٨٠٠٠ شخص بينهم ٥٠٠٠ جندى و ٣٠٠٠ عبد و ٨٠٠ اسير أجنبى . يتم نقل الذهب المستخرج على ظهر الحمير إذ لم تعرف المنطقة الجمال آنذاك ، ومن ثم يتم ترحيله فى قوافل تشرف على حمايتها قوات نوبية تسمى ما تشاى .

لم يقتصر نشاط فراعنة الاسرة العشرين ، وبالذات رمسيس الثالث (١١٩٨ – ١١٦٧ قبل الميلاد) على تعدين الذهب ، اذ شمل نشاطهم ، اضافة لذلك ، تجارة اللبان والبخور التى شهدت رواجاً منقطع النظير فى الفترة الاخيرة . ولكن بعد سقوط الاسرة العشرين بدأ الاهتمام بهذه التجارة يقل ، لذلك لم ترسل بعثات تجارية أخرى الى بلاد البنط وهجرت الطرق التجارية الموصلة بين النيل والبحر الأحمر .

كما ذكرنا أنفاً فإن الفراعنة كانوا يحمون مناجم الذهب بكميات كبيرة من القوات (غالبيتها من المرتزقة الأجانب) وذلك لغرض استمرارية انتاج الذهب وحماية العاملين فى المناجم من عبيد وأسرى من هجمات البجا المتكررة ، والذين قال عنهم سترابو بأنهم كانوا قله غير ميالة للحرب . لم تتطرق تسجيلات قدماء المصريين كثيراً الى سكان الصحراء الشرقية ، ولكن كلمة بوكا التى وجدت على بعض النقوش لم يحدد بالضبط من المقصود

بها غير أنه جاء ذكر مجموعة سميت بعانوا وتسكن الصحراء الشرقية ويتسلحون بالاقواس قد يكونون فى أغلب الاحيان هم البجا .

لم يهتم الفراعنة كثيراً بحكم إقليم البجا وكان اهتمامهم ينصب على حماية المناجم والدفع بحملات تأديبية متى ما استدعت الضرورة لذلك . والسبب فى ذلك أن الاقليم كان فقيراً ولولا وجود الذهب فيه لكان نسيا منسيا . اضف لذلك ان البجا كانوا اقواماً بدائيين يعيشون فى مجموعات صغيرة مبعثرة لا تشكل خطورة تذكر للفراعنة الذين انصب همهم على تركيز قدراتهم ومواردهم لاعداء أخرين يفوقون البجا عدة وعتاداً . لذلك لم يرد ذكرهم فى سجلات الفراعنة حتى عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

يعتقد بأن أول سرد تأريخى لسكان الصحراء الشرقية والذين عرفوا فيما بعد بالبلميين والبجا كان فى الأوديسة لهوميروس وفيها يقول .

جئت الى قبرص فى فينيقية والى المصريين

وبين الأثيــوبيين والسـيدونيين والاريمبيين

أرتبط هذا السرد بزيارة ميناليوس لمصر ورحلته الى الحدود الأثيوبية (حيث تقع بعض مستعمرات صيداً التى كانت تتاجر مع الجنوب) وإقتنائه ثروة طائلة من الذهب والعاج . ليس من المستبعد ان يكون الاريمبيين هم نفس السمبريتيين ، وهذه مترادفات لوصف اولئك السكان الرحل القاطنين خلف الحدود المصرية ويشمل ذلك البجا القدماء .

ذكر هيليودورس ، مطران إميسا ، الذى كتب عن تاريخ اثيوبيا فى القرن الرابع الميلادى بأن البجا (البليميين) كانوا يخضعون لملوك مروى وناصروا ملوك الاسرة الخامسة عشر فى حروبهم ضد الفرس وذلك مقابل اعفائهم من الجزية لمدة اربعة عشر عاماً ويذكر أن نستاسنين حاكم مروى فى عام ٢٩٠ قبل الميلاد اغار على مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية واحضر معه ٨٠٠ رطل من الذهب الخالص والخام ومليون وربع المليون من الماشية . ولاشك ان الرقم الاخير مبالغ فيه لان المنطقة فى احسن ظروفها الرعوية لا تستطيع ان تستوعب حتى ربع ذلك الرقم ، حتى وإن اضيفت لذلك الاغنام والماعز ، اذ ان اعداد الماشية فى الوقت الحاضر لا تتعدى ١٧٥٫٠٠٠ رأساً من الماشية .

تسبب ضعف الممالك المصرية فى هجر مناجم الذهب ، وبذلك اسدل ستار لثمانية قرون على منطقة الصحراء الشرقية والجبال الواقعة بين النيل والبحر . لم يسمع عن هذه المنطقة أو سكانها أى شئ حتى عام ٣٠٠ قبل الميلاد ، اى حتى مجئ قواد اسرة لاجد الذين بدأو يستكشفون المنطقة الساحلية فى اتجاه الجنوب .

عند موت الاسكندر المقدونى عام ٢٣ قبل الميلاد إقتسم قواده اجزاء امبراطوريته الواسعة . وكانت مصر من نصيب بطليموس الذى سمى بسوتر لتمييزه من الحكام اللاحقين به والذين حمل جميعهم نفس الاسم . وتحت امرة ذلك القائد وخلفائه تجدد المجد لمصر مرة أخرى حيث نشطت مرة أخرى البعثات التجارية المتجهة لجنوب البحر الاحمر مما كان له الفضل فى انعاش طرق المواصلات ومحطات التموين على الطرق المؤدية لهنالك ، فضلا على اقامة بعض الاسواق على امتداد الساحل . مثال لهذه الاسواق يمكن ذكر مرفأ برينيس الذى أنشأه عام ٢٧٥ قبل الميلاد بطليموس الثانى ، فيلاديلفوس ، ثم بطليماس ثيرون (عقيق) فى عام ٢٨٥ قبل الميلاد وأخيراً بيرنيس الذهبية التى أنشأت أخيراً فى عهد بطليموس الثالث ، يرقيتس .

تحول كلا المرفئين ، برنيس وبرنيس الذهبية الى موانئ زاخرة ونشطة بفضل تجارة العاج والصمغ ودروع السلاحف والابنوس والتوابل والماس ، فى حين أن ادوليس اشتهرت بتجارة الرقيق ولكنها أيضاً تميزت بتجارة الافيال وذلك بفضل موقعها بالقرب من غابة النوبة الكبيرة التى تعج بالافيال . انبهر قواد الاسكندر بالمقدرة القتالية للافيال الافريقية التى شاهدوا نماذجاً لها فى الهند . لذلك لم يبخل البطالسة جهداً ، ولكن بدون جدوى ، فى ترويض الفيل الافريقى لمثل هذه الاغراض . شهدت تلك الفترة أعداداً كبيرة من الافيال فى أودية بركة ولانقيب والقاش مما شجع بطلمياس لإنشاء قاعدة لصيدهم ثم ترحيلهم الى مصر .

يذكر أن بطليموس الثانى ، فلاديلفوس ، أرسل احد قواده ، اميديس ، لتعزيز تلك المحطة وتعزيزها بقوة من الرماة لصد هجمات البجا الذين كانوا يجيدون رمى السهام . كما الحقت هذه المحطة بالعمال المهرة الذين برعوا فى بناء المنازل والمعابد والمزارع . ولكن بطليموس الثانى فشل فشلاً ذريعاً فى اقناع القبائل المحلية فى الاقلاع عن اكل لحوم

الأفيال . تعتبر منطقة اسادرهيب ، التى تبعد ميلاً واحداً للجنوب من ميناء عقيق الحالى ، أحدى المواقع التى يمكنها ان تحتوى على أثار ذلك البطليموس ، كما يمكن ان تحتوى ايضاً على أثار تجارة الافيال التى اشتهرت بها المنطقة ، وذلك حسب ماورد فى الوثائق والنقوش التى وصلت الى ايدينا فى الوقت الحاضر . لذلك لابد من تكثيف البحث الاثرى الدقيق فى تلك الرقعة والمناطق المحيطة بها .

صيد الافيال وأسرها ثم إرسالها عبر البحر فى سفن شراعية صممت خصيصاً لذلك الغرض كان من الأعمال الشاقة والمضنية والتى كانت تتطلب جهداً ووقتاً اضافيين . يتم شحن هذه الافيال الى برنيس ومن ثم كانت ترحل عبر الصحراء الى كوبتوس أو أمبى على النيل . وتعود السفن من هنالك محملة بالشعير لتموين محطات الصيد فى بلاد الكهوف والصومال . يستدل على صيد الافيال فى تلك المنطقة والمخاطر التى ارتبطت بها هذه العملية بوجود صخرة كبيرة فى وادى عباد ، على الطريق الموصل بين بيرنيس والنيل ، نقشت عليها صورة فيل كبير وبالقرب منها يشاهد صائداً اغريقيا يؤدى الصلوات شكراً وإمتناناً لعودته سالماً من رحلة صيد الافيال فى الجنوب . أيضاً وجدت على النصب التذكارى لبطليموس الثانى العبارة التالية : " أرسل الى أسيا فى كتيبة من المشاة والأفيال التى أسرها هو وابوه فى اثيوبيا وبلاد الكهوف ثم ارسلت الى مصر حيث تم ترويضها لاساليب القتال والحرب" . ثم هناك الاهداء الخاص من الاسكندر صائد الافيال فى عهد البطليموس الرابع فيلوباتر الى الالهة ايريس ، الهة الصيد ، ويقرأ الاهداء على النحو التالى :

نيابة عن الملك بطليموس والملكة ارسينوى وبطليموس ابن فيليوباتر المقدس ، سليل بطليموس وبرنيس ، ابنة يرقيتس المقدس ، الى الآلهة أيريس ، ملهمة النصر والحظ فى الصيد ، والاسكندر ، ابن سنديوس الاوريانى ، الذى خلف شاريمورتس ، الذى بدأ صيد الافيال ، وكذلك أيوسيس إبن ميوربولوس الاتيانانى والقائد وكل الجنود الذين خدموا تحت إمرته .

اسر وترويض الافيال الافريقية لم تكن من المهام اليسيرة . لذلك وقف شحنهم إما فى عهد بطليموس الرابع أو خلفه بطليموس الخامس ابيفانس . عدم صلاحية الافيال الافريقية

للحرب جاءت من وقائع معركة رافيا عام ٢١٧ قبل الميلاد التى انتصر فيها بطليموس فيلوباتر الا أن أفياله الافريقية (وكان عددها ٣٧ فيلاً) لم تثبت أمام أفيال انتيوساس الثالث الاسيوية المنشأ .

لم تقتصر جهود الاجد الاوئل على إنعاش تجارة البحر الاحمر وصيد الافيال لاغراض الحرب والقتال بل امتد نشاطهم الى اعادة التعدين فى الصحراء الشرقية التى ظلت تنتج الذهب الى القرن الاول قبل الميلاد . وتعلق بعض المصادر على أن انتاج الذهب فى تلك الفترة فاق ما أنتج طوال فترة الاسرة العشرين ، غير أن وسائل التعدين وتعذيب العمال وسخرتهم لم تختلف كثيراً عما كانت عليه فى أيام الفراعنة .

ويروى ديودوراس سيكيولس أن ملوك مصر كانوا يدفعون للعمل فى المناجم المجرمين العتاة واسرى الحرب وغيرهم من المتهمين . لم يرسل الى تلك المناجم هؤلاء الاشخاص بمفردهم بل ارسل معهم جميع أفراد اسرهم وذلك لمزيد من الترهيب والتخويف . لزيادة الربح كان العمال يساقون الى العمل تحت وطأة السياط التى تنهال على ظهورهم حيثما ذهبوا . لذلك كانت مجموعات كبيرة منهم تموت بسبب هذه المعاملة القاسية .

اما الاجد اللاحقين فكانوا أقل اهتماماً بالمنطقة مما تسبب فى أهمال الطرق الصحراوية المؤدية للمناجم ، وبالطبع شمل الاهمال الآبار التى حول المناجم وامتد أيضاً الى الموانئ الموجودة فى المنطقة مما أدى فى نهاية المطاف الى إهمال كامل لتعدين الذهب فى عام ٤٠ قبل الميلاد .

قلد البطالسة الفراعنة فى حملاتهم الاستكشافية فى مناطق البجا واستقروا فى قلاع ومحطات تجارية شيدوها لتوفير الحماية المطلوبة لتجارتهم القادمة من بلاد الهند والجرز الغربية . لذلك لم يكن لهم اتصال بسكان المنطقة . والمعلومات المتاحة الان ماهى الا صدى لقصص وروايات الرحالة الذين جابوا المنطقة ، لذلك يجدر الاخذ بها بحذر . لان رحالة مثل ديودوراس سيكيولس ، الذى يعتبر اكثرهم صدقاً واتزانا ، يقول فى وصفه لسكان هذه السواحل أن الشمس فى منتصف النهار فى تلك البقاع تكون شديدة الحرارة لدرجة أن شخصين يقفان جنبا الى جنب لا يرى أحدهم الاخر لكثافة الهواء بينهما ، وان قطعة من اللحم إذا وضعت فى إناء يتم طهيها وقتياً بسبب حرارة الشمس . ويوصف بلينى ،

وهو كاتب آخر ، سكان المنطقة فيقول بأنهم أناس لا رؤوس لهم وأن عيونهم غائرة لمستوى دون اكتافهم . اما الكتاب الاخرين ، الذين يصنفون الى مرتبة أقل عما أوردناهم ، فيلحقونهم هم والنوبة بالاثيوبيين الذين يعيشون خلف السابن .

لذلك يمكن القول بأن كتاب ذلك العصر كانوا يتصفون بعدم الدقة والاسترسال والتركيز على الوصف والمبالغة الذهنية . غير أن هذا لا ينفى بأن سكان تلك المنطقة لم يكونوا الا أقواماً بدائيين ، يعيشون فى الكهوف ويتسلحون بالاقواس والسهام ويذكرونهم دائماً بأنهم سكان الكهوف . وأول من اطلق هذه التسمية عليهم هو أغاثا أرشيدس الذى استند فى ذلك على أسلوب سكنهم بالكهوف . وبالتالى فإن كل الكتاب اللاحقين له استمدوا هذه التسمية منه . أما فلويير فيختلف مع هذا الرأى ، ويؤكد بأن هذه التسمية اطلقت على عمال المناجم وبناة الكهوف وليس لسكانها . لم تحدد بعد القبائل أو المجموعات التى اطلقت عليها هذه التسمية . غير أن هيرودوتس ، الذى كتب فى بداية عام ٤٥٠ قبل الميلاد ، تحدث على أكلى الاسماك الذين يعيشون بين اسوان والبحر الاحمر ، وقد يكون هؤلاء من سكان الكهوف . تم فى وقت لاحق التفريق بين اكلى الاسماك وساكنى الكهوف اذ قيل أن المجموعة الاخيرة هى اكثر القبائل الصحراوية بدائية . وفى ذلك السياق يذكر ديودوراس سيكيوليس عام ١٤٠ قبل الميلاد " بأنهم قوم عراة تشاع بينهم الزوجات ، وكغيرهم من اكلى الاسماك ، فهم لا يتعاطون الخمر ويعيشون فى كهوف أو فى خيام من القش أو تحت الاشجار أو فى حفر فى البحر "، كما ذكر بأنهم يدفنون موتاهم على قمم التلال . ويهيلون عليهم كمية كبيرة من التراب والحجارة . هذه ممارسة ليست غريبة عن بجا اليوم فى حالة دفن موتاهم . ثم يضيف الكاتب فيقول بأنهم يتغذون على اللبن الممزوج بالدم ويتسلحون بالقوس والسهم والهراوات والدروع المستديرة . أما أغاثا أرشيدس يقول معلقاً على عاداتهم بأنهم لا يدعون أى كائن حى ، أنساناً كان أم حيواناً ، أن يموت موتاً طبيعياً . وعندما يتقدم السن بالانسان أو الحيوان أو يصاب بمرض عضال فإنهم يقتلونه . كما ذكر أيضاً اكلى اللحوم والجراد والحشرات وغيرهم من المجموعات التى تتغذى كالماشية على العشب .

ويمكن ان نخلص الى القول بأن البجا فى عهد الفراعنة والبطالسة أو حتى أخيراً ،

وسواء تم تصنيفهم بأكلة اللحوم والاسماك والجراد أو حتى العشب فهم من غير شك لم يكونوا غير رعاة بدائيين يعيشون فى الكهوف أو فى بيوت من القش او الجلود . وفى هذا يمكن الاخذ بوصف ديودوراس عنهم لما يحتوية من تطابق لاسلوب حياتهم الحالى . هنالك اعتقاد وسط بعض البجا اليوم بأن أجدادهم الاوائل كانوا من الرعاة ساكنى الكهوف ، وربما عاش بعض منهم حتى تحت الارض . لذلك يمكن ان يكون صحيحاً الرأى القائل بأنهم رعاة يعيشون فى الكهوف ، أما المجموعة التى كانت تقطن بالقرب من النيل فكان عليها أن تتأقلم وتتكيف مع الظروف الجديدة ، ومما يوضح ذلك تلك الوثيقة (من عهد البطالسة) التى تتحدث عن عقاب اوقع بشخصين من اسوان لشرب الخمر مع البلميين ، اضافة لجنايات أخرى .

يمكن اعتبار حكم البطالسه الذى امتد لثلاثة قرون والذى تم فيه استغلال ذهب المنطقة وتطوير تجارة البحر الاحمر انفع واجدى من حكم الفراعنة الذى امتد لفترة أطول . اما المرتزقة الاغريق الذين استعملهم البطالسة فى حراسة وإدارة المناجم والموانى وتصريف التجارة فيها لم يكونوا الا مجموعة من المغامرين ولازالت ذكراهم حية الى هذا اليوم فى أذهان كثير من الناس . عاشت هذه المجموعة التى سميت بالروم فى منطقة الساحل وكانوا يمثلون سلالة بيضاءة طويلة القوام ، عاشوا وتزاوجوا مع البجا وساهموا فى البناء وتطوير الزراعة فى المنطقة . كما استطاعوا ان يأقلموا انفسهم للظروف المحلية . ويقال أن هذه المجموعة استطاعت ان تنفذ الى جبال التقرى بطرق سلميه أو غير سلمية حيث كان لهم دور ، كما تقول الرواية ، فى قيام وإزدهار مملكة أكسوم .

هنالك دليل أخر لتأثير الاغريق على البجا وهو أن مجموعة كبيرة من القبائل البجاوية كانت تعتقد فى ايزيس وأوزيريس وسيرابيس وغيرها من آلهة الاغريق . وبصفة عامة كان البجا يتعاملون مع كل الاديان بكثير من السطحية ، رغم ميلهم الشديد لإعتناق ديانة الغريب . فمثلا نجدهم فى يوم من الأيام كانوا من عبدة الاوثان والارواح والاجداد ثم تحولوا لعبادة ايزيس وأوزيريس ، الهة الاغريق . وتحولوا مرة أخري لعبادة الهة السماء والارض ، كما كان الحال فى أسيا . ثم انتقلوا الى اليهودية والنصرانية وأخيراً الاسلام . ويعلق بيركارت عن اسلام الهدندوة والبشاريين فيقول بأنه كان أسمياً لأنهم لا يؤدون

الشعائر الدينية . يمثل التأقلم السريع مع الاديان وسط البجا ظاهرة غريبة لانهم فى النواحى الاخرى يمثلون مجتمعاً منغلقاً ومتذمتاً . أيضاً من الحقائق الثابتة ان البجا لم يكونوا على قدر كبير من التدين ، رغم اعتناقهم للاسلام للاربعة قرون الماضية . وفى اعتقادى انهم لا يمانعون فى التحول الى أى ديانة أخرى حتى وان كانت تلك الكونفوشيوسية .

الفصل الخامس

السبئيون ومملكة اكسوم

٧٠٠ قبل الميلاد - ٧٥٠ ميلادية

الارض التى تظلها الاجنحة تقع خلف انهار اثيوبيا

إسايا ١٨ - ١

عبر السبئيون الذين كانوا يشكلون القوة الغالبة فى جنوب الجزيرة العربية البحر الاحمر بحثا عن التجارة واحتلوا جزيرة دهلك الساحلية ومن ثم توغلوا الى الداخل ليستقروا فى أرض تقرينيا ، الواقعة الان فيما يعرف بأريتريا وأثيوبيا . كان ذلك بزمن سحيق من مجئ المسيح . قد يكون ذلك فى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد أو عام ٦٠٠ قبل الميلاد .

انحدر السبئيون من جبال حضرموت وكانوا يمثلون فرعاً من فروع قبيلة قحطان الكبيرة وقد احتلوا جنوب الجزيرة العربية فى حوالى ١٨٠٠ قبل الميلاد ، ثم اختلطوا وانصهروا مع سلالة كوش العريقة التى استعمروها . رغم ذلك الانصهار الا أن انتماؤهم لقحطان كان من شأنه أن يوفر لهم مكانة متميزة مهدت من إستغلالهم للكوشيين الذين كانوا يعملون فى فلاحة الارض ورعى الماشية وتجارة البخور .

عندما استقر المقام بالسبيئين فى تلك الديار الجديدة بدأوا يتوغلون من محمياتهم التجارية الساحلية الى المرتفعات الخلفية حيث وجدوا ظروفاً مناخية أشبه بما عهدوه فى جنوب الجزيرة العربية . تميزت هذه المناطق الجبلية بجو معتدل لطيف وأمطار غزيرة وكثافة ضئيلة من السلالات البجاوية القديمة التى كانت تمتهن الرعى . وهنالك بدأوا يتاجرون فى العاج والذهب والعطور ودروع السلاحف والابنوس . وتدريجياً بدأت تجارتهم تتوسع ونفوذهم يتعاظم مما مكن لهم السيادة الكاملة للقبائل المحلية . وبالتالى اصبح أفراد القبائل الكوشية يقومون بجمع الحطب وجلب المياه ، نفس المهام التى كان يوكلها أجدادهم للقبائل الكوشية بحضرموت . لم تقتصر الهيمنة على هذه النواحى فقط بل تعدت الى نواحى أخرى تمثلت فى فرض لغتهم ودينهم ومفاهيمهم الاقطاعية وبعض من ملكاتهم

السبئيين .

أى الاراء أصدق لازال موضوع أخذ ورد ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن مملكة أكسوم قامت حوالى عام ٦٠ قبل الميلاد وأن قيامها تزامن ، كما يقول بَضْجْ ، مع سقوط مملكة نبته وملكتها كنداس على يد بترونيس الحاكم الرومانى لمصر عام ٢٣ قبل الميلاد . كما تزامن ذلك أيضاً مع هزيمة السبئيين على يد الحميريين . أشهر ملك لهذه المملكة هو الملك زوكاليس ، الذى خلف مؤسسها ثم دخل فى حلف مع الاغريق ووسع رقعة مملكتة لتشمل الاراضى الواقعة بين خور بركة ومضيق باب المندب . وفى أوج ازدهارها توسعت هذه المملكة جنوباً لتشمل منطقة أزاينا فى المحيط الهندى وغرباً حتى مشارف وادى النيل . كان البجا الشماليون من رعايا هذه المملكة وساهموا فى جيشها وشاركوا فى مد نفوذها حتى حدود مصر ، كما شاركوا أيضاً فى القضاء على منافستها مملكة حمير باليمن .

ليس هناك سرد تأريخى موثق لمملكة أكسوم ، ولا يمكن وضع وزن كبير للملوك هذه المملكة من الاثيوبيين ، كما ورد فى كتابات بروس وسولت وبضج وغيرهم الذين حاولوا ربط أثيوبيا واكسوم بسلالة الملك سليمان . وكما يقول بضج فإن تاريخ اكسوم منذ ميلاد المسيح ولاحقاً يعتبر مرحلة غير موثقة وأن تاريخ أثيوبيا لم يبدأ الا عام ١٢٦٨ أو عام ١٢٧٠ . وفى اعتقادى بأن ما يسمى بسلالة الملك سليمان إنما توجد فى الشوا ، وان القضاء على أكسوم وحاكمها الاخير (من الشوا) كان على يد الزغوا فى القرن التاسع الميلادى . لذلك فمن المستبعد أن تكون أكسوم ، كما تدعى بعض الروايات الاثيوبية ، امتداداً لاثيوبيا اليوم ، كما لايوجد دليل قاطع يربط حاكم اكسوم بأثيوبيا ودم سليمان .

ما وصلتنا من المعلومات البسيطة عن اكسوم مصدرها الاساطير والروايات المختلفة وبعض النقوش ، كانت مملكة اكسوم تبسط سلطانها على دولة اقطاعية يجلس على قمتها مجموعة صغيرة من النبلاء المتحضرين الذين عاشوا على حساب مجموعة بدائية كبيرة من الارقاء والبجاويين الذين امتزجت دماؤهم الحامية بالدم السامى . امتهنت هذه المجموعة الرعى والفلاحة ، ممارسات لاتختلف كثيراً عما هو متبع اليوم . برعت اكسوم فى التجارة التى أكسبتها قوة وثروة جعلتا منها قوة تفرض سيطرتها على الرقعة الواسعة بين النيل والبحر الأحمر .

أما المسلات الحجرية الضخمة التى أقامتها أكسوم واطلع عليها المسافرون أمثال بنت وغيرهم اثناء تجوالهم فى المنطقة فإنها تعتبر من العجائب المعمارية الفريدة التى تحتاج لمزيد من التنقيب والدراسة . ومما لا شك فيه أن نحت هذه المسلات ونصبها احتاج لطاقة ومهارة فنية رفيعة المستوى . قد يكون أسباب نصب هذه المسلات هو التكريس للشمس واستر ومديرو محرم أو مجموعة الآلهة التى كان يعتقد فيها الاكسوميون أو قد تكون مكاناً مقدساً لتقديم القرابين . لم يحدد بالضبط من الذى شيد هذه المسلات ، قد يكونوا من السكان المحليين أو بعض المجموعات التى وفدت الى المنطقة عبر البحر . ولكن من المسلم به أنها من الناحية الفنية والمعمارية اشبه بالذوق الهندى ولها شبه كبير بالمعابد الهندية التى كانت تقام فى الهند آنذاك أو بعد الميلاد بقليل (اى قبل عام ٣٤٠ ميلادية) . أما من ناحية التنفيذ فهى أشبة بالآثار المصرية . لذلك مما يثير العجب أن نتصور التقاء الهنود والمصريين فى مرتفعات التقرى واتفاقهم على اقامة هذه التماثيل البارعة تخليداً لآلهة ملوك بدائيين غرباء ، غير أن كاميرر يعتقد بأن هذه الآثار ما هى الا مقابر اقيمت فى فترة ما قبل المسيحية أو فى بداية عهد ايزناس ، هذا بالرغم من ارتباطها فكرة بمصر الا أنها اشبة بالذوق العربى تصميماً وتشييداً .

عدد ملوك اكسوم المعروفين لدينا قليل ويذكر منهم على سبيل المثال ذوكاليس وأفيلاس وايزناس ، الذى قضى على الكوشيين وبقايا مملكة مروى عام ٣٥٦ ، ثم اعتنق المسيحية فى وقت لاحق ، كما يمكن ذكر اسبها الذى حكم ما بين ٥١٤ - ٥٤٢ م وأرسل بعثات عسكرية ضد اليمن . أضف لذلك أرمها الذى استقبل وأعطى الحماية لأوائل المسلمين المهاجرين اليه . اصبح التعرف على كل هؤلاء ممكناً بفضل النقوش والكتابة التى كتبت باللغة السبئية والأغريقية ، علاوة على الرموز الاثيوبية . كما تم التعرف على البعض الآخر بالعملات الموجودة الآن والتى نقشت عليها آثارهم اضافة لبعض المراجع القليلة . الآثار والنقوش الموجودة الان شحيحة ومقتضبة وغير مكتملة وتبدأ دائماً بذكر اسم الملك الذى أمر بكتابتها ولقبه . وتقرأ مثلا على النحو التالى : " ملك أكسوم حاكم حمير وريدان والحبشة وسبأ وسيله وتييام وكاسوا والبجا ، ملك الملوك ابن محرم (أريس) الذى لا يغلب . . .

لم تكن هذه الاسماء والالقاب الا تقليداً عاماً متبعاً ويعتقد بأنها لم تتمتع بسلطة فعلية لكل الرقعة الجغرافية التى تم سردها أنفاً . وبذلك فهم أشبة بملوك انجلترا الذين تمتعوا فقط بسلطة رمزية ولكن الذى لاجدال فيه أن مملكة أكسوم توسعت كثيراً وخضعت لنفوذها ممالك وأقوام بعيدين ، فمثلاً نجد أن كتابات ادوليس نقشت كتذكار لإحتلال ملك غير معروف (يمكن ان يكون أفيلاس) لمناطق مثل أداوا وسيمين وأقامى والمرتفعات القريبة والمناطق الساحلية من ارض الدناكل الحالية وقبائل البجا وأتالمو . وفى هذا السياق فهو يقول " لقد عبرت نهر تكازا (عطبرة) وأخضعت لسلطتى أفا وأتالمو والبجا والقبائل المرابطة حولهم ، ومن ثم زحفت نحو مصر " . وذكر أيضاً قبائل أخرى مثل أتاغوا ، سوغاييت وآغازيات . قد تكون الأخيرة غيز ، التى أستمدت منها اللغة الاثيوبية رموزها ، وسوغاييت قد تكون فرعاً صغيراً من فروع البنى عامر . أما الإتاغوا (بالتقرى : عد اغاو) فلم يكونوا الا قبيلة بجاوية من تلك القبائل القاطنة الجبال الغربية للتقرى منذ أمد بعيد . هنالك أيضاً الألما (قوم التمساح) الذين يعتبرون فرعاً من فروع بيت معلا ، وقد يطابق اسمهم الى حد كبير اسم الأتالمو .

تواريخ افيلاس (ان كان ذلك هو) غير معروفة بالضبط . قد يكون ذلك فى نهاية القرن الثانى أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد . غير أن النقوش التى عثر عليها لها أهميتها - الأولى هى تسجيل سقوط مستعمرة السبئيين القديمة فى أفا ، والأهمية الثانية تكمن فى ذكر القبائل الحامية ، لأول مرة ، فى ساحل البحر الاحمر بالاسم الذى تعرف بها الآن فى الوقت الحاضر وهو البجا . ومن الواضح أن هذه التسمية اطلقت على القبائل التى تقطن الصحارى الشمالية الشرقية أو المنطقة التى يسكنها الان الامرأر والبشاريين والهدندوة وليس جميع القبائل التى تنضوى تحت هذه التسمية فى الوقت الحاضر . وفى تلك الحملات لابد وأن الملك استغل كل مالدية من الرقيق لإخضاع البجا الشماليين ، وإن تلك الحروب التى استمرت لفترة من الزمان لازالت تتواصل رحاها على ضفاف نهر عطبرة وبركة والقاش .

سجلت بعض نقوش وكتابات إيلا أميدا ، والد ايزناس الشهير ، الصعوبات التى واجهته فى اخضاع قبائل كاسو وجمع الجزية منهم . لانه كما يقول : " فهم كانوا يخفون

جمالهم منى " ، ارتبط اسم كاسو بمروى ، ومن المحتمل أن هذا الاسم شمل بعض القبائل البجاوية مثل الحفرا وغيرها من القبائل التى عاشت فى المثلث الصحراوى بين نهر عطبرة وأبى حمد ، على الفرع الغربى للنيل . فى تلك الأثناء تم القضاء على مروى وبالتالى تكون قد فقدت سيطرتها على القبائل الخاضعة لها .

يعتبر أيزناس ، الذى خلف والده ايلا أميدا فى العرش عام ٣٣٠ م ، من أشهر ملوك أكسوم . كان فارساً مقداماً وحاكماً مطلقاً لا يرد له قول أو أمر . لذلك فهو يقول " كل من أدان لى بالطاعة والولاء فقد سلم منى وكل من عصانى فسيكون مصيره الموت المحتوم " . وفيما يخص التأريخ البجاوى فإن كتاباته تعتبر فى غاية الاهمية ، إذ تروى بعضها ثورة البجا ضده مما أرغمه فى إرسال بعثة عسكرية كاملة التجهيز لهم يقودها شقيقاه سيزان وهديفا اللذان اخضعا ستة من ملوك البجا والقبائل الحليفة لهم . عن تلك المعارك كان ملوك أكسوم يتحدثون بلغة المنتصر . غير أن ملوك البجا الذين ادعوا إخضاعهم قد لا يكونوا غير زعماء لعشائر أو قبائل فرعية صغيرة . أيضاً لم تعرف اسماء أولئك الملوك أو نوع العقوبات التى اوقعت بهم . ويعتقد بأن القضاء على ثورة البجا اضطره الى أن يرحل أكثر من أربعة أو خمسة ألف نسمة الى مستعمرات جديدة فى متاليا مجهزة بالغذاء والكساء والحيوان ليكونوا بالقرب من قبضته المباشرة . لقيت هذه التجربة استحساناً لدى حاكم كسلا عام ١٩١٠م الذى اعتقد بأن معالجة مشاكل الهدندوة والقضاء على شوكتهم يمكن أن تتم بترحيلهم الجماعى الى كردفان . وبخصوص ذلك الحل قال الملك ايزناس" نحن ارغمناهم لتغيير مسكنهم وأرسلناهم الى جزء من أرضنا يسمى متاليا" . وبعد ذلك احتفل الملك بذلك النصر باقامة تماثيل من الذهب والفضة والنحاس امتثالاً وامتناناً للآلهة التى شملته بالنصر والتوفيق .

ويظهر أن الملك ايزناس اصيب بجنون العظمة والاعتداد بمقدرته العسكرية كالإسكندر المقدونى ، واعتره الغرور بأن جيوشه التى تم الاعداد لها بصورة ممتازة إجتاحت مساحات واسعة من المناطق الجنوبية من أرض البجا . لم يتم النصر لازيناس الا بسبب التفرقة والتجزءة التى كانت تسود ديار البجا والا لشكلوا قوة مانعة ضد هجماته . لم تتوقف طموحات ايزناس عند ذلك الحد من الإنتصارات الواسعة بل حاول ان يوسع من رقعة

مملكتة فأرسل جيوشه نحو أفان ، ثم نحو عطبرة عام ٣٥٦م لإخضاع الكاسو والنوبة الذين أساءوا معاملة رسله لهم ويقول أيزناس ممجداً انتصاراته هذه :

لقد نهضت مستعينا بقوة آلهة الارض والتحمت معهم فى تكازى ، على شاطئ نهر كمالى . لم يصمدوا لهجماتنا ولاذوا بالفرار ثم لاحقتهم لثلاثة أيام متواصلة واشبعتهم قتلا وأسراً وبسطت سلطتى على تلك الاراضى عند ملتقى النهرين سيدا وتكازى .

يجدر بالذكر أن ايزناس فى تلك الاثناء اعتنق المسيحية التى تحول إليها بمساعدة فرومنتيس ، السورى الجنسية ، الذى اعتقل مع أخيه فى ميناء أدوليس وأرسل بعد ذلك الى ملك أكسوم ليكون تحت حمايته المباشرة . استطاع فرومنتيس أن يقنع الملك فى اعتناق المسيحية عام ٣٤٠ وعينه أثناسيوس بعد ذلك اسقفاً عاماً على مملكة أكسوم . كان تأثير فرومنتيس على أيزناس كبيراً لدرجة أنه عينه وصياً للعرش وراعياً لابنه الذى لم يبلغ الرشد بعد . وفى تلك الأثناء ارسل الملك قسطنطين الثانى (٣٣٧ - ٣٦١) كتاباً الى الملك ايزناس يطلب فيه استبدال فرومنتيس بأسقف اكثر منه تديناً . وهكذا وصلت المسيحية الى الحبشة ولكن نفوذها لم يستمر طويلاً وذلك بسبب تحول السكان الى الاسلام فى وقت لاحق . هذا فإن تأثير المسيحية فى الحبشة كان أقوى بالمقارنة للقبائل البجاوية الشمالية التى اعتنقتها بصورة سطحية ومؤقتة .

تمتعت أكسوم ، فى أوج مجدها ، بعلاقات مع العالم الخارجى . تمثل ذلك فى تحالف تجارى وعسكرى ، كانت أساطيلها فى أدوليس تجوب البحر الأحمر محملة بالبضائع . وبطبعية الحال فإن هذه الاساطيل لم تكن بمستوى الاساطيل العربية ، غير أنها كانت بمستوى جيد جعل روما تغير منها وتطلب ودها وتوطيد أواصر الصداقة معها . بدأت روما الحوار مع أكسوم لاول مرة فى فترة الملك أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ربما لطلب تكثيف الجهود ضد البجا الشماليين الذين احتلوا فى تلك الفترة أجزاءاً من مصر العليا . وفى عام ٣٣٧ ناقش قسطنطين الاول أمكانية أقامة أتفاقية تجارية مع اكسوم حيث أرسل مبعوثه فرومنتيس لهذه المهمة . هذا اضافة للعلائق الدينية المتينة التى كانت تربط قسطنطين الثانى بأكسوم والتى نوه عنها سابقاً .

يذكر أن الذهب لم يعرف ولم يستغل فى مملكة أكسوم ، لهذا كانوا يستعملون النحاس

الاصفر لأغراض العملة المعدنية . رغم ذلك فإن ملوك أكسوم كانوا يتحصلون على ما يحتاجون إليه من الذهب عن طريق المقايضة مع قبائل ساسو البدائية التى كانت تعيش على الجنوب فى بلاد اللبان والبخور . ولهذا الغرض فإن مملكة أكسوم كانت ترسل بعثة كل سنتين لمقايضة اللحم والحديد والملح بالذهب . ويقول كوسماس " تقع بلاد ساسو بالقرب من المحيط والذى يقع بدوره بالقرب من بلاد اللبان والبخور " . تستغرق الرحلة لبلاد ساسو ستة شهور وكانت تتطلب حماية كافية للقوافل التجارية الذاهبة والعائدة من هنالك . وجدت العملة النحاسية استعمالاً واسعاً فى مملكة أكسوم ولازالت نماذج من هذه العملة تكتشف يوماً بعد يوم ، غير أن ملوك أكسوم اللاحقين كانوا يستعملون الذهب لصك عملتهم إضافة لاستعماله لأغراض الزينة والحلى .

أرسل الامبراطور جستين (٥١٨ - ٥٢٨) مبعوثه نونس الى ملك أكسوم طالباً نجدته ضد الفرس ولكن أسبها (٥١٤ - ٥٤٢) ، ملك أكسوم ، استعار منه ٦٠ سفينة بدعوى أنه لا يملك سفناً حربية . وبمرور الزمن بدأت مظاهر التقهقر الثقافى تطرأ على الدولة ، وكان أكبر شاهد لذلك هو أن أسبها ، عكس سابقيه ، لم يتقن اللغة الاغريقية ، ومنذ ذلك الحين لم تستعمل هذه اللغة كلغة للكتابة والتدوين . غير ان العملة كانت تحمل بعض النقوش الاغريقية الا أنها كانت بصورة محرفة وخاطئة . رغم كل ذلك أن الانطباع الذى نقله نونس الى الامبراطور جستين هو ان أكسوم تمثل مركزاً تجارياً هاماً لتجارة التوابل والجلود والذهب والعاج ، وان الحملة التى رأسها ساعدت كثيراً فى انجاح غزو أسبها لليمن عام ٥٢٥ .

كان ذو نواس ، أخر ملوك حمير ، يبدى تعاطفاً شديداً مع اليهودية وفى نفس الوقت كان يشن حملات واسعة ضد المسيحيين . وفى الجانب الآخر كان أسبها ، ملك أكسوم ، مسيحياً متذمتاً لدرجة أنه أصبح قسيساً . لذلك جهز حملة متكاملة لنصرة المسيحيين فى اليمن للحد من حملات واضطهاد ذى نواس . قتل ذو نواس فى واحدة من هذه الحملات واحتلت أكسوم اليمن وعينت عليها حاكماً مفوضاً من قبل الملك . وفى تلك الفترة كان الفرس يهددون الامبراطورية الزومانية من الشرق وجنوب الجزيرة العربية من الشمال . دفع هذا التهديد الرومان ان يطلبوا النجدة والمساعدة من أكسوم التى بدأ يتلاشى مجدها

بسبب حرب اليمن التى استنزفت كل قواها العسكرية والاقتصادية فضلا على ما تبقى لها من مستعمرات فى اليمن وحمير وما تشكله هذه المستعمرات من استنزاف اضافى للموارد .

الى هذا الفترة الزمنية ينتمى ابرهة الذى وصف كثيراً بأنه واحد من ملوك أكسوم رغم ان ذلك لم يكن صحيحاً . نشبت عام ٥٣١ حرب أهلية فى الجزيرة العربية بين أريات ، حاكم حمير ، الذى تمتع بسند من الملك وبين ابرهة حاكم اليمن . إنتهى هذا الصراع الى مقتل أريات وتنصيب ابرهة كحاكم مطلق على حمير . لهذا لم يجد أسبها ، حاكم أكسوم وسيلة غير الاعتراف بأبرهة كحاكم على جميع جنوب الجزيرة العربية . بل أن أبرهة لم يكتفى بذلك حيث اعلن نفسه حاكماً لأكسوم نفسها ، مما قاد الى الانطباع الخاطئ بأن أكسوم كان يحكمها ملكان فى آن واحد . تتصف سيرة أبرهة بأهمية تاريخية خاصة لإرتباطها بحملته الشهيرة ضد الكعبة عام ٥٧٠ والتى ذكرت فى القرآن " بموقعة الفيل" . كان مقر الاسقفية فى سافار ، وهجرت الكنيسة التابعة لها من قبل عرب قريش . انتقاماً لهذا الموقف أرسل أبرهة حملة تأديبية لمكة ، مقر الحجر المقدس والذى عرف فيما بعد بالكعبة . تكونت حملة أبرهة من جيش جرار يدعمه ثلاثة عشر فيل . ولكن هذه الحملة منيت بالفشل رغم هذا الاعداد والتجهيز لها وذلك بسبب انتشار داء الجدرى الذى قضى على معظم جيشه .

ارسل الامبراطور جستنيان عام ٥٧٠ بعثة الى أكسوم بقيادة جوليان يستفسر فيها عن امكانية تحويل تجارة الحرير الى طريق جديد عبر البحر الأحمر بدلا عن فارس . غير ان قبراماسكال ، إبن أسبها ، اعتذر عن مساعدته بدعوى عدم توفر سفن لديه . ولكن جوليان انبهر بمظهر ملك أكسوم الذى كان نصف عار ورصع جسمه بكمية كبيرة من الحلى والذهب وتحمله عربة تجرها أربعة أفيال .

أخر ملوك أكسوم الذين ذكرهم التأريخ هو ارمها الذى أعطى الحماية لاصحاب محمد الذين هاجروا من مكة والمدينة واحتموا به فى الفترة ما بين ٦١٠ - ٦٢٩ . بعد ذلك ضعف نفوذ أكسوم وتلاشى مجدها بسبب الهجمات العربية عام ٦٤٠ والتى تسببت فى القضاء على مينائها فى أدوليس . وحينها وجد البجا الشماليون بأن الفرصة واتية لهم فى التوغل

فى أراضى التقرى والحماسين وساعد على ذلك ضعف المملكة وإستنزاف قواها . اضف لذلك الغزو الإسلامى لمصر عام ٦٤١ والذى قضى على آخر منفذ لها للاتصال بالعالم الخارجى . وفى القرن التاسع استبدل أخر امرائها بزعيم من شوا ومنذ ذلك التاريخ لم يسمع العالم شيئاً عن أكسوم .

خلفت أكسوم وراءها آثاراً وبصمات تدل على قوتها وعظمتها . شمل ذلك التماثيل الجميلة واللغة التى تتحدث بها ثلاثة مجموعات هى الامهرا ، وقبائل الهضبة الاريترية والقبائل البجاوية الجنوبية المسلمة ، اضافة للرموز التى تستعمل لكتابة اللغة الاثيوبية فى الوقت الحاضر . واكثر من ذلك جميعه ما تبقى من عادات وتقاليد وخضوع للسلطة تميزت به القبائل البجاوية الجنوبية حيث أصبح ذلك نمطاً حياتياً مميزاً لهم مما سهل من تمكين الاقطاع بينهم واستعبادهم من قبل طبقة صغير مترفعة من غير البجا .

ملوك اكسوم الذين تميزوا بأهمية تأريخية :

ملوك أكسوم المعروفين لدينا ، اما عن طريق التدوين أو العملة أو عن طريق مصادر أخرى هم مجموعة بسيطة يذكر منها :

١ – ذوكاليس ، ٧٦ – ٩٩م ، ذكره بعض الكتاب بأن اسمه ذا هاكال وورد ضمن قائمة من الملوك الآخرين . قد يكون ترتيب هذا الملك هو الثانى فى الاسرة المالكة .

٢ – افيلاس الديميلى – التاريخ غير معروف . ولكنه قد يكون الملك الذى وجد اسمه منقوشاً على بعض التماثيل .

٣ – اوسناس القويسى الوثنى الذى عرف عن طريق عملته .

٤ – سمبروتس عرف من خلال بعض النقوش البسيطة .

٥ – انديبيس . كان وثنياً أيضاً وتم التعرف عليه من خلال عملته .

٦ – ايلا اميدا الهالينى ، ٢١٤ – ٣٢٥ ، والد ايزناس ، عرف من خلال نقوشه ونقوش ابنه .

٧ – ايزناس الهالينى ، ٣٢٥ – ٣٧٠ ، من اشهر ملوك أكسوم . كان مسيحياً ومن اشهر

انتصاراته هو قضاؤه على مملكة مروى عام ٣٥٦ .

٨ - أسبها ٥١٤ - ٥٤٢ ، يعرف أيضاً ككالب انتصر على ذى نواس ملك اليمن . يقال انه قضى بقية حياته راهباً .

٩ - بيتا اسرائيل ، ٥٤٢ - ٥٥٠ ابن اسبها . عرف من خلال عملته .

١٠ - قبرا ما سكال . الابن الثانى لأسبها ٥٥٠ - ٥٦٤ أو ٥٧٠ .

١١ - أرمها ، ٦١٠ - ٦٣٥ أعطى الامن والحماية لأصحاب محمد وفى وقت لاحق تبادل معه بعض الرسائل .

الفصل السادس

أعـداء رومـا

(٥٠ قبل الميلاد - ٦٤٠ بعد الميلاد)

البلميين الذين يتسلحون بالاقواس والسهام المصنوعة من عظام التنين

من الترجمة الاليزيبثية لهيليودورس

ضم اغسطس مصر الى الامبراطورية الرومانية بعد انتصاره على انطونيو وكليوباترا فى اكتيام عام ٣٠ قبل الميلاد واوكل لحمايتها ثلاثة فيالق انخفضت فيها بعد الى فيلق واحد كلف بالمرابطة حول مدينة الاسكندرية لقمع الشغب المتكرر بها . تركت الامصار المحيطة بها لقوة محلية صغيرة تدعمها قوات نظامية متى ما استدعت الظروف لذلك . تركزت فى ساين (اسوان) الحامية التى أوكلت لها حماية جنوب مصر من هجمات النوبة والبجا وعززت هذه الحامية بنقاط اضافية فى تالمس (كلابشا) وثمانية مدن أخرى اكثرها جنوباً كانت هيروسيكامينوس (محاراكا) . علاوة لذلك أنشأ الرومان فرقة من الهجانه لتجوب الصحراء لوقف هجمات البجا .

نشبت فى عام ٢٣ قبل الميلاد اضطرابات على الجبهة الجنوبية ، مما استدعى ارسال قوة يقودها قييوس بترونيوس الذى قضى على نبته انتقاماً لهجمات النوبة على أسوان . لم يعرف عن البجا فى تلك الاثناء الا القليل ولم يشكلوا للرومان أى خطر يذكر حتى منتصف القرن الثالث عندما بدأوا يشكلون تهديداً حقيقياً للمواقع الرومانية ، وكان مصدر ذلك التهديد هـو احتلالهم لبعض المدن على وادى النيل ومن ثم تهديد السلطة الرومانية فى تبيد . والبجا ، كما هو حالهـم الان ، كانوا يشكلون قبائلاً متفرقة لا تجمعهم قيادة موحدة ، غير أن المجموعة التى أطلق عليها الكتاب الكلاسيكيين اسم البليميين هى مجموعة حضرية استقرت على مشارف النيل وتختلف جذريا عن تلك المجموعات البدوية التى تسكن الصحراء وساحل البحر الأحمر . تحدث استرابوا عن مجموعات مختلفة تسكن تلك المناطق . شمل ذلك البليميين والمقابارين الذين استوطنوا وادى النيل وحول برنيس . لم يعرف بالتحديد من هم المقابارين ، الا أنه من الارجح انهم يمثلون ، كالبليميين ، فرعاً من



وادى النيل والبحر الأحمر فى العهود الكلاسيكية

فروع القبائل البجاوية ، ولا سيما من ناحية السلوك والعادات . تبدى بعض المصادر تحفظاً فى ربط البليميين بالبجا لما تميزت به المجموعة الاولى من ثقافة متطورة وحياة استقرار لم يتوفرا لقبائل البجا الرعوية فى الصحراء الشرقية . ويقول كرافوت فى مؤلفه جزيرة مروى " أن ربط البليميين بالبجا ، سلالة تكن عداءاً شديداً للحضارة ، لأمر يفتقد الموضوعية .

وفى اعتقادى ان هذا الرأى خاطى والسبب فى ذلك هو عدم توفر مصادر كافية توضح بأن البليميين تمتعوا بحضارة رفيعة نابعة عن ذاتيتهم ، بل المعروف عنهم انهم استقروا فى مناطق حول وادى النيل قبل أو فى عام ٢٠٠ قبل الميلاد ولكنهم (ومن خلال معرفتى بالبجا الحاليين) لم يعرفوا كسكان مدن ولم يكتب لهم الاستقرار الا بعد الإستيلاء الجزئى أو الكلى لأراضى الغير .

من الصحيح أن حفريات كرانوق (وولى وماكئفر) تتحدث عن فترة البلميين وعلاقتهم بذلك الاحتلال الذى دام اكثر من اربعمائة أو خمسمائة عام ، كما تتحدث أيضاً عن حضارة البليميين ومعمارهم ، وانتاجهم الفنى فى الاثاث المنزلى والفخارى . هذا وصف غير دقيق لان حفريات كرانوق أو ضحت أيضاً آثاراً لاقوام غير رعويين يشكلون خليطاً من الناس ترأسهم طبقة ارستقراطية غير زنجية وشاركوا امبراطوية مروى فى ثقافتها ، والى حد كبير ، فى معتقداتها الدينية . المبرر الوحيد لارجاع هذه الثقافة الى مروى هو أن البليميين الذين غالبيتهم من الزنج استطاعوا أن يحتلوا ذلك الجزء من وادى النيل لمئات السنين وفرضوا سيطرتهم عليه كطبقة ارستقراطية ، ولكن انفسهم لم يضيفوا شيئاً الى الثقافة والحضارة التى وجدوها . وعلى العكس تماماً ، هنالك شواهد تتحدث عن تأثيرهم السلبى بسبب هيمنة سلالة رعوية بدائية على طبقة أخرى أكثر تحضراً وثقافة . هذا الوضع الغريب هو الذى قاد الى تدهور الاوضاع ثم الى هزيمة البليميين وطردهم عام ٥٤٠ م . ونجد أن الرموز المروية استعملت بصورة عادية وان ثقافتهم ، الى حد كبير ، مشابهة لحضارة مروى الا أنها كانت أدنى مستوى من تلك السائدة هناك مما يدل على محليتها وانعزاليتها علاوة لذلك نجد ان البليميين ، كما وصفهم ديوكاسيوس ، كانوا محاربين وكانوا يحترفون رعى الماشية والصيد ويتسلحون بالاسلحة الخفيفة والدروع

المصنوعة من جلد العجول .

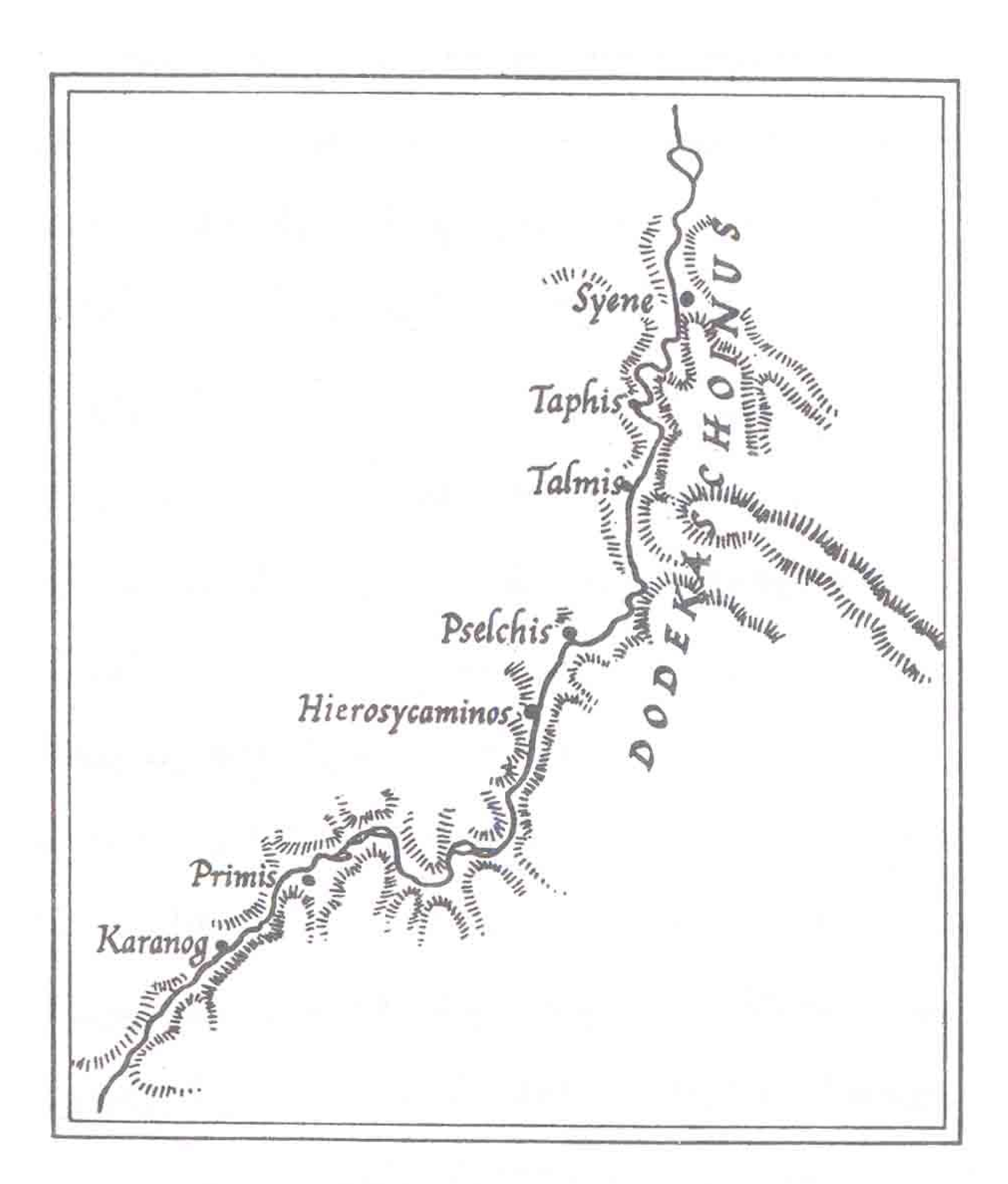
يعتقد بأن البليميين بقوا ، الى آخر لحظة ، على هيئتهم الصحراوية وطبيعتهم الرعوية . وأنا أوافق كيروان رأيه بأن تسمية البليميين استحدثها الرومان ، لأول مرة ، لتطلق على مجموعة القبائل الرعوية المنتشرة بين الحبشة ومصر والبحر الأحمر . وهؤلاء القوم كانوا فى ترحال مستمر ، حالهم حال القبائل البجاوية فى وقتنا الحاضر والتى تقطن نفس الرقعه الجغرافية . وينوه كيروان ، فى موضع آخر ، على تشتت البليميين على مساحة جغرافية واسعة وعلى تباين قبائلهم وعشائرهم ، إضافة لسلوكهم الرعوى . ويوضح كل ذلك تضارب الآراء حولهم كما وردت فى روايات المؤرخين والكتاب الكلاسيكيين .

هنالك رأى آخر يرى بأن البليميين لم يكونوا من البجا وذلك لرعايتهم للجمال عكس البجا الذين كانوا يرعون الابقار بصفة رئيسية . غير أن الواقع يقول بأن البجا أهتموا برعاية الحيوانين فى آن واحد . ومن ناحية أخرى تتحدث الشواهد المناخية بأن الأبقار بأعداد كبيرة لم تستطع التأقلم لظروف المنطقة الواقعة الآن شمال الخط الحديدى الذى يربط بين عطبرة وبورتسودان ، لذلك ليس غريباً أن نفترض بأن البليميين قد يكونون جزءاً من القبائل البجاوية الشمالية وكانوا يحتفظون بأعداد قليلة من الابقار علاوة لرعايتهم للجمال ، اسوه ببشاريي اليوم الذين برعوا فى رعاية الجمال ويعيشون فى نفس المنطقة . وأنا شخصياً اكثر ميلا للرأى القائل بأن جميع سكان الصحراء الشرقية كانوا ولازالوا يشكلون مجموعة عرقية واحدة الا انهم يتفرعون ، كما هو حالهم اليوم ، الى فروع قبلية كثيرة كالهدندوة والبنى عامر وغيرها . ضمن هذه الفروع مجموعات تباينت فى مستواها الحضارى والثقافى كمجموعة أكلى السمك البدائية فى ادنى درجات السلم الحضارى والبليميين الذين اشتهروا بمستوى رفيع لحضارة متطورة فى الجانب الاخر من السلم .

لا تكشف لنا الصور التى وجدت على صخور الصحراء الشرقية الكثير عن البليميين ، غير أنها تركز على أنهم كانوا من رعاة الابل ويتسلحون بالقوس والرمح ويدينون بالوثنية والمسيحية فى آن واحد وارتبطت انماط حياتهم بالاسلوب الصحرواى . وتوضح تجاربى الشخصية بأن مجموعات بدائية فى وقتنا الحاضر كالشلك والنوبة مثلا يظهرون ملكات فنية مماثلة ، الا أن رسومهم تحتوى ، اضافة للحيوانات ، كل الاشياء التى ارتبطت

بحياتهم مثل السيارات والطائرات والبواخر النيلية وصور بعض الشخصيات الغريبة التي تلبس الخوذات وتجلس على الكراسي وتستعمل الاسلحة النارية . لذلك أرى أن البجا فى عهد البليميين لم يشذوا عن مثل هذا السلوك ، إذا ان رسومهم احتوت على اناس يلبسون لباساً أشبه بالقميص ويضعون القبعات على رؤوسهم ويتسلحون بالسيف والدروع المستطيلة . ومهما كانت دلالة ذلك فهم ليسوا من البجا والدليل على ذلك السيوف وشكل الدروع ، اضافة لمظهرهم العام الذى يوضح بأنهم رجال خيل . وأنا اعتقد بأن المعنى بهذه الصور هم الجنود الرومان أو المرتزقة الاغريق الذين استعملهم البطالسة لحراسة طرق التجارة ومناجم الذهب بالبحر الاحمر . ويجدر بالذكر بأن هذه الفترة تزامنت مع غزو أبى المالك بن شامنار - بيراش ، ملك اليمن ، لمنطقة عيتباى والذى لقى حتفه وجميع جيشه فى محاولته الفاشله للاستيلاء على مناجم الزمرد فى الصحراء الشرقية . لايتطرق التأريخ الحديث لهذه الواقعة لكنها ذكرت على لسان بعض المؤرخين العرب .

لم تبد روما إهتماماً خاصاً بمناجم الذهب فى الصحراء الشرقية مما نتج عنه أهمال تلك المناجم . اما فى مجال التجارة فكان اهتمامها ينصب على التجارة الوافدة من الشرق الاقصى وبالذات عن طريق عدن وعبر بقية موانى البحر الاحمر . لذلك لم تعر روما اهتماماً يذكر بالبجا الا فى حالات متقطعة كتلك الحادثة التى وقعت عام ١٣٦ عندما حاول بعض قواد الحضريان فتح طريق تجارى بين برنيس والميناء الجديد فى انتينيوبولس ابدى البجا اعتراضاً لذلك المشروع مما استدعى مطاردتهم وملاحقتهم . لم تستقر الاحوال لفترة طويلة إذ أن القبائل البجاوية بدأت عام ٢٤٩ بمهاجمة مصر العليا فى عهد الامبراطور دسيبيوس وتتطلب صدهم جهداً كبيراً . وتوالت هجماتهم عام ٢٦٨ مرة اخرى ضد الوجود الروماني فى مصر حيث تحالفوا هذه المرة مع البلمريين وشكلوا معهم جيشاً كبيراً قوامه ٧٠٫٠٠٠ شخص مستعينين فى ذلك أيضاً ببعض الوطنيين والبليميين . شهدت مصر اضطرابات متواصلة طيلة عهد أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) حيث اكتسح البجا مدن كثيرة فى تبيد وبقيت هذه المدن تحت سيطرتهم الا أن أبعدهم عنها بروبس عام ٢٧٦ . لم يثن ذلك عزمهم ولم يوقف هجماتهم التى تتابعت جنوبا حتى وصلت بطليماس . وفى عام ٢٨٠ تطلب هذا الوضع تدخلاً شخصياً من بروبس نفسه ، الذى أصبح امبراطوراً فى ذلك



Syene
Taphis
Talmis
Pselchis
Hierosycaminos
Primis
Karanog
DODEKASCHOINUS

جنوب تبید

الحين ، وقاد بنفسه جيشاً كبيراً لطرد البجا مرة أخرى الى الصحراء وإنشاء نقطة للمراقبة فى هيروسيكامينوس .

وفى عام ٢٨٤ تخلى الامبراطور ديوكلتيان عن حامية دوديكاشينوس وفضل أن ينشأ بدلاً عنها دولة النوبة لتكون منطقة عازلة تحول دون هجمات البجا لجنوب مصر . ولكى لا تقع هذه الدولة فى أيدى البجا رأى من الضرورة بمكان مدها بالعون المادى ، وفى نفس الوقت قدم للبجا بعض المساعدات لصرفهم عن هجماتهم لمصر . لم يستمر ذلك الوضع طويلاً اذ أن البجا استطاعوا الاستيلاء على أسوان وبقية مناطق تبيد . تسبب ذلك فى ضعف روما وفشلها فى صد الهجمات البجاوية لمصر . ولفترة القرنين التاليين أصبح البجا القوة الغالبة فى جنوب مصر وأصبحت كلمة البجا تثير الرعب والفزع فى نفوس مواطنى وادى النيل وماحولها . إضافة لذلك هنالك بعض المصادر التى تقول بأن هجمات البجا لم تقف عند جنوب مصر بل امتدت فى القرن الرابع الى منطقة الطور ، فى الطرف الاخر من البحر الأحمر . ويقال انهم استولوا على سفينة فى البحر الأحمر وأرغموا طاقمها بالابحار نحو الطور الذى استولوا عليه ومارسوا فيه قتلاً وسلباً الا أن تمت أبادتهم فى وقت لاحق على ايدى القبائل المحلية .

وعلق قيبسون بالكلمات التالية على تهور البجا وجرأتهم فى جعل أنفسهم انداداً لامبراطورية روما " هؤلاء البرابرة المتوحشون والضاربون فى القدم نصبوا من أنفسهم اعداءاً لروما" . وأقل ما يقال عن محاربى تلك الصحراء بأنهم لم يقبلوا قط المذلة والهوان وأن شجاعتهم وبسالتهم اكسبتهم التقدير والاحترام حتى من اعدائهم . لقد وصفهم الكثيرون بأنهم محاربون اشداء غير قابلين للترويض وأنهم كانوا مهرة فى رمى الرماح والسهام . لقد وصلت شجاعتهم وبسالتهم حداً بأنهم كانوا يقذفون بأنفسهم بين أرجل الخيل المسرعة ثم ينتزعون أحشاءها . وبذلك كانوا يضربون اصدق المثل لبسالة المحارب الحامى . اضافة لذلك فهم قساة عند النصر ولايصمد احد أمام رماحهم علاوة لتفردهم بعناء شديد يصعب ترويضه . ويقال بأنهم يشربون دم أعدائهم ، بالذات أولئك الذين قتلوا بسبب خلافات دموية . ذكر بيركارت بأن هذه العادة لازالت سائدة بين الحلنقة فى كسلا .

كانوا يعتقدون فى مجموعة غريبة من الكواكب ، وفى بعض المصريين والسبئيين وفى

بعض الآلهة الخاصة بهم . كما يقال بأنهم كانوا يقدمون القرابين الى الشمس . وقال عنهم مومسن " بأنهم قوم بربريون ، وعندما يثورون فهم يتصرفون كالوحوش ولم يتخلوا عن التضحيات الانسانية . لم يخضعوا فى حياتهم لحكومة منظمة ، بل أن كل مجموعة منهم كانت تخضع لزعيم خاص بها ، وكانوا فى حرب ضروس مع بعضهم البعض ، ولكنهم لايمانعون فى التوحد تحت قيادة واحدة اذا كان ذلك لغرض غزو جيرانهم . لقد تم احتلالهم لوادى النيل ولكنهم طردوا منه فى وقت لاحق . كما تم لهم الاتحاد لتكوين مملكة صغيرة وممارسة نوع من أنواع السلطة المنظمة . ويروى أوليمبيودورس بأنه زار اسوان عام ٤٢٣ وقابل هنالك بعض عشائر البليميين الذين اصطحبوه لزيارة بعض مدنهم الجنوبية مثل قوينكون وسيريس وتافس وتالمس وبرميس . كما سمح له ملكهم زيارة مناجم الزمرد فى الصحراء . لم يهتم الرومان بالذهب ولكن كانت لهم السيطرة الكاملة على الزمرد الذى كانوايصدرونه الى اثيوبيا مقايضة لتجارتهم مع الهند .

اتحدت قبائل البجا عام ٤٢٩ بصوره لم يسبق لها مثيل فى هجوم كاسح على الواحة الكبرى واسروا مجموعة كبيرة من سكانها . غير أن عام ٥٤٠ شهد انتعاشاً جديداً للحكم الرومانى فى مصر العليا حيث استطاع ماكسيمينوس ، احد قواد الامبراطور مارسيان (٤٥٠ - ٤٥٧) ، من هزيمتهم ثم طردهم وتوقيع معاهدة معهم تم بموجبها استرجاع جميع الاسرى والرهائن ، اضافة لدفع الجزية . كما سمح لهم بترحيل صورة الآلهة ايزيس من مقرها بفللى الى الصحراء لعبادتها هناك . لم يتغلب ماكسيمينوس على البجا فقط بل استطاع ان يكسب ودهم وثقتهم . فمثلاً عند مناقشة بنود المعاهدة معه إقترح البجا عليه هدنة لا يتعرضون فيها لمصر طالما هو فى السلطة هنالك أو طالما هو على قيد الحياة . وأخيراً وقعوا معه هدنة لمدة مائة عام . لكن ما أن سمعوا بوفاته حتى قاموا بالهجوم على تبيد مرة أخرى وأفرجوا عن رهائنهم المعتقلين . بذلك تمت لهم السيطرة الكاملة فى القرن الخامس وجزء من القرن السادس على جنوب تبيد بين اسوان وبريميس ، وخضع لهم سكان وادى النيل كما كانوا يقومون بهجوم متقطع لمملكة النوبة التى تقع على الجنوب .

شهد منتصف القرن السادس حدثين هامين ، الاول هو سحقهم وطردهم من وادى النيل بواسطة النوبة . والثانى اعتناق جزء منهم المسيحية . أما حربهم مع النوبة فلم يذكر

عنها الكثير . ولكن من المؤكد أن العقد الثالث أو الرابع من القرن السادس شهد هزيمتهم على يد سيلكو ، ملك النوبة . فى تلك الاثناء كانوا يدينون بالوثنية لان النقوش التى وجدت على معبد ماندوليس بتالمس أو ضحت كيف أن الملك احتفل بإنتصاره على البجا وذكر بعضاً من آلهتهم فى ذلك السياق :

لقد جئت الى تالمس وتافس واشتبكت مع البليمين مرتين ووفقنى الله فى الانتصار عليهم مرة وثالثة . لقد اخضعتهم لسلطانى ونصبت نفسى سيداً على مدنهم ثم توسلوا لى ووقعت معهم سلاماً حيث أقسموا لى بجميع آلهتهم ووثقت فى قسمهم لأنهم كانوا أهلاً للثقة . ثم رجعت لبلادى .

وعندما أصبحت ملكاً لم أحذ حذو الملوك الاخرين وكنت دائماً أمامهم . لم اتساهل مع اولئك الذين لم ينصاعوا لأوامرى حتى يعقدوا لى البيعة وهم صاغرون . ولم اسمح لشيوخ أو أمراء القبائل التى حاربتنى أن تركن الى الظل ولكن تركتهم فى العراء تحت اشعة الشمس الحارقة ، كما لم أسمح لهم بشرب الماء فى منازلهم . أيضاً قمت بسبى نساء وأطفال كل من حاول مقاومتى .

يعتقد وولى بأن سيلكو خاض ، على الاقل ، معركتين ضد البليميين . الاولى كانت مباشرة بعد اعتناقه للمسيحية (٥٣٠ - ٥٤٠) والثانية عندما تحالف مع الرومان للقضاء على ثورتهم ضد جستنيان الذى حطم آلهتهم فى فيللى . ويستدل من الحفريات والكتابات فى تالمس بأن البليميين قاموا بهجمات متكررة ضد مصر فى الفترة ٥٣٨ - ٥٣٩ . وكان سبب ذلك ان حبستنيان قفل معبدهم فى فيللى كجزء من العقوبات ضدهم .

ومهما كانت الملابسات والظروف الا إن إنتصار الملك ضد البليميين كان حاسماً ونهائياً وأدى الى ضعف متواصل للموقف البجاوى وكان من نتيجة ذلك طردهم من مستعمراتهم فى وادى النيل الى صحاريهم الشرقية . ومنذ ذلك الحين لم يسمع عن البليميين أى شئ . لم يتطرق بروكوبيوس فى كتاباته عام ٥٤٣ للبجا عندما كتب عن القبائل المستوطنة فى اسوان أو فى دوديكاشينوس هذا رغم هجمات البجا المتكررة لفيللى والتى يساندهم فيها النوبة والتى استمرت حتى عام ٥٧٧ . وفى وقت لاحق تم القضاء على هذه الهجمات على يد اريستوماشوس ، حاكم مصر فى عهد تبيريوس الثانى .

لايعرف الكثير عن اعتناق البجا للمسيحية ، ولكن فى حوالى ٥٣٦ قام الامبراطور جستنيان بقفل معبد ايزيس فى فيللي وأمر بإزالة جميع الآلهة هناك واعتقال الكهنة المشرفين عليه ثم امر بتخصيص الموقع لعبادة المسيحية . لم يكتب النجاح لهذه السياسة لأنها ازالت الشئ الوحيد ، فى المناطق الرومانية ، الذى يكن له البجا نوعاً من التوقير والاجلال . لذلك توالت الهجمات مرة أخرى . وفى تلك الاثناء وصلت المسيحية الى النوبة على يد جوليان ، مبعوث الامبراطورة ثيودورا التى بعثت بتلك الحملة رغم المعارضة الشديدة التى ابداها زوجها حيال ذلك الامر . وفى عام ٥٧٠ عززت تلك الحملة ببعثة أخرى يقودها لونغينوس . حققت تلك الحملات قدراً كبيراً من النجاح فى ديار النوبة ، ولكنها لم تحقق نجاحاً مماثلاً وسط البجا . والبجا ، والى لحظة تحولهم الى الاسلام ، اصبحت ديانتهم مزيجاً من الوثنية وعبادة الشمس والحجارة ، فضلا لاعتقادهم فى ايزيس واسكرابيس ومندوليس ، كل ذلك كان ممزوجاً بإعتقاد سطحي فى المسيحية اليعقوبية ومع تقلص النفوذ الرومانى رجع البجا الى وثنيتهم التى لم يتخلوا عنها مطلقاً .

ولم يسجل التأريخ شيئاً يذكر عن البجا منذ ذلك الحين والى ظهور العرب فى المسرح السياسى فى القرن السابع الميلادى . لذلك فإن منطقة جنوب مصر ، التى كانت عرضة مستمرة للهجمات البجاوية ، اصبحت تتمتع بنوع من الاستقرار . قد يكون السبب المباشر فى ذلك هو هزيمتهم الساحقة على يد النوبة مما دفع منطقتهم الى فوضى وحروب أهلية حتى مرحلة أحتلال العرب لمصر ولإعادة اكتشاف الذهب فى ديارهم .

الفصل السابع

الغزو العربى

(٦٤٠ - ١٥٢٠)

جزء من الارض العربية تعبق برائحه السمن والجمال

داوتى

بدأت فى القرن السابع الميلادى موجة متقطعة من الغزو العربى لمنطقة البجا . ولكن هذا الغزو لم يكن بالكثافة الشديدة ، غير أنه كان كافياً ومؤثراً لتحول جميع البجا الى الاسلام . يجدر بالذكر أن أوائل المهاجرين العرب لم يكونوا مسلمين وكانوا ينتمون الي أحدى بطون قبيلة حمير . هاجر بعض أفراد هذه القبيلة من منطقة شِهْر فى جنوب الجزيرة العربية وعبروا البحر الاحمر ليستقروا بين قبائل البجا فى عيتباى وتلال سنكات . تمتعت هذه المجموعة بالسيادة على قبائل البجا الذين تزاوجوا معهم . وسبب هذه السيادة هو التفوق الحضارى والثقافى من ناحية والنظام الاجتماعى السائد بينهم والمتمثل فى توريث الام من ناحية أخرى .

ويقول بيركارت نقلا عن ابن سليم الاسوانى الذى زار منطقة النوبة عام ٩٧٠ فى عهد الخليفة المعتز :

نجد بينهم ان ابن البنت أو الاخت يورث بدلا عن ابن الصلب . ويضيف بأنهم يولون أهمية كبرى لولادة ابن البنت أو الاخت لانه هو الابن الحقيقى بصرف النظر عن والده .

من الثوابت التاريخية ان العرب وفدوا الى ديار البجا قبل الهجرة . ويقال انه كانت هنالك بعض اعتقادات المسيحية اليعقوبية وسط البجا ولم يتخلوا عنها الى الاسلام الا فى القرن التاسع بعد الغزو العربى لمصر . وعرف العرب المهاجرون بالحدارب ، وهى تحريف بجاوى لكلمة الحضارمة والتى يستشف منها بأن غالبية هؤلاء المهاجرين كانوا من حضرموت . غير أنهم كانوا يعرفون بين البجا بالبلو وذلك بسبب تلك اللغة الغريبة التى كانوا يتحدثون بها ، أى البلوييت ، التسمية السائدة بينهم الى يومنا هذا . لم يشع استعمال تسمية بلوييت الا بعد طردهم من عيتباى فى القرن الخامس عشر . ادى

استعمال إسمين مختلفين لنفس المجموعة العرقية الى كثير من اللبس والاعتقاد الخاطى بأن هذين المصطلحين يعنيان مجموعتين مختلفتين ، عكس ما هو راسخ فى أذهان البجاويين عن أصل المجموعة الوافدة وفى ذلك يقول واحد من مؤرخى الامرأر :

" أن البلويين ماهم الا عرب جاءوا من الجزيرة العربية واختلطوا بالقبائل المحلية قبل الهجرة العربية المكثفة الى السودان " .

يميل كثير من الكتاب الى تصنيفهم بأنهم بجا وقد يكونوا محقين فى ذلك استناداً للتزاوج المكثف مع البجا والذى استمر لقرون من الزمان حتى تلاشت فيهم الدماء الحميرية . سميت هذه المجموعة بأسماء مختلفة مثل بلو وبالاو وغيرها من التسميات العرقية التى امتدت على رقعة جغرافية واسعة حتى مدينة هرر . نسبهم البعض خطأً الى الكيلوْ ، الذين يمثلون قبيلة بجاوية معروفة كانت تعيش لبعض الوقت فى القاش وخور بركة ، كما نسبوا أيضاً الى قبيلة بجاوية فى هضبة التقرى لها ارتباط بالحبشة وطردت الى السهول الغربية فى القرن الرابع عشر . ويقول لونقوق " أنه مما لاشك فبه أن البلو من اصل بجاوى ودخلوا اريتريا كوثنيين واستقروا على الساحل حيث اعتنق بعضهم الاسلام فى القرن الخامس عشر واعتنق البعض الاخر المسيحية " .

هذا سرد غير دقيق . قد يكون من المحتمل ، كما يدعى روسين ، بأن هنالك مجموعتان من البلو ، الاولى فى الشمال وهى تمثل الحدارب الذين تمركز وجودهم فى عيتباى وسنكات ، ومجموعة أخرى جنوبية شكلت النواة التى نشأت حولها مملكة البلو التى ازدهرت فى الرقعة الجغرافية الممتدة من سواكن الى مصوع ، وسوف يتطرق لها الحديث فى الفصل التالى . يعتقد كيروان ان اسم البلو ينحدر من كلمة البليميين . هذا بالطبع استنتاج غير صحيح لان البلو ما هم الا حميريين هاجروا من الجزيرة العربية فى القرن السادس قبل الميلاد ولم يكن لهم أى اتصال سابق بالبجا الحاميين . أما الادريسى فيرجع اصلهم الى الروم" الاغريق" . وهذا ايضاً اعتقاد جانبه الصواب لانه حاول ان يربط بينهم وبين معتقدهم الدينى آنذاك وهو المسيحية اليعقوبية . اما مونزقار فيعتقد بأنهم جاءوا فى القرن الخامس عشر من الشمال . قد يكون ذلك صحيحاً فيما يخص ما يعرف الان بإريتريا لانهم طردوا فى تلك الاثناء من عيتباى ثم من منطقة سنكات الى المنطقة

الجنوبية . قد يكون كراوفورد محقاً فى ارجاع نسبهم الى الدم العربى غير أنه فشل فى أيجاد علاقة بينهم وبين الحدارب ، اضافة أن القرن الثامن ، تاريخ قدومهم للمنطقة كما يقترح هو ، يعتبر وقتاً متأخراً . هذا الخلط واللبس كانا بسبب التسميات المختلفة التى اطلقت عليهم ، فمثلا نجد ان الاحباش يذهبون ابعد من ذلك فيطلقون كلمة الحدارب على مجموعة كبيرة تشمل فيما تشمل الدبينات والشكرية ، قبائل لا علاقة لهم بالبلو .

يجدر بالاشارة هنا ان نميز بين حدارب (بلو) القرون الوسطى وبين من يمثلهم فى الوقت الحالى من الارتيقه والاشراف وغيرهم من الذين وردت اسماؤهم على لسان الكتاب والرحالة الذين زاروا السودان فى القرن التاسع عشر . اصبحت هذه القبائل بجاوية مثل الاتراك والمصريين والشراكسة والبوسنيين الذين وفدوا الى المنطقة طلباً للربح والكسب من تجارة الرقيق وضروب التجارة الاخرى التى اشتهرت بها سواكن اثناء فترة الحكم التركى ، كما تزاوج الكثير منهم مع القبائل البجاوية . الارتيقة ، بصفة عامة واميرهم الذى كان يلقب بأمير الحدارب بصفة خاصة هو الذى كان يتقاسم الارباح المتحصلة من ميناء سواكن مع الحكام الاتراك فى بداية الامر ثم مع المصريين فى وقت لاحق . لذلك لم يكن عثمان دقنه الا نتاجاً طبيعياً لمجتمع الحدارب هذا ، اذ كان اجداده من الاكراد الذين استقروا بسواكن فى القرن السادس عشر ثم صاهروا البجا للثلاثة قرون التالية . وأن والدة عثمان دقنة نفسها كانت من قبيلة البشاراياب (فرع من فروع الهدندوة) .

قد يستبعد مما هو متاح الان من المعلومات القول بأن الحدارب وفدوا الى شرق السودان بإعداد كبيرة رغم ما تميزوا به من جاه وسلطان لانهم فشلوا فى الاحتفاظ بلغتهم كما فشلوا فى فرضها على القبائل المحلية ، فضلا انهم تخلوا عن وثنيتهم وجاروا البجاويين فى اعتناقهم لبعض اشكال المسيحية . ومن ناحية أخرى يعلل على انتمائهم العربى فى اقتنائهم للخيل ، ذلك الحيوان الذى ينظر اليه البجاوى بكثير من الشذر والرهبة . والادريسى هو الكاتب العربى الوحيد فى تلك الحقبة التاريخية الذى ذكر بأنهم بلو وليسوا حدارب . وفى ذلك يقول " كانت مشارف اسوان تهاجم من قبل مجموعة من فرسان الخيل السود الذين يسمون بالبلويين ، ويعتقد بأنهم كان يعتنقون المسيحية منذ العهد المصرى وكانوا يجوبون الفيافى بين البجا والاحباش ، وتصل سطوتهم حتى الى

النوبة " .

احتل جيش عمرو بن العاص عام ٦٤١ مصر وزحف جنوبا حتى دنقلا . وهنا ورد ذكر بعض ممالك البجا مثل شيه أو سوه والتى كانت عاصمتها على نهر عطبرة ، وتحالفوا مع النوبة لنجدة الحامية الرومانية من بهناسا ، ولكنهم هزموا رغم جيشهم الكبير الذى تألف من اكثر من ٥٠ر٠٠٠ مقاتل ومجموعة كبيرة من الافيال . قد لا تكون هذه الواقعة صحيحة لان بهناسا تقع على مسافة بعيدة وليس بمقدور الجيش البجاوى ان يصل اليها اما الرواية الاكثر احتمالاً هى التى تحكى عن موقعه الدبة بالقرب من دنقلا والتى انتصر فيها خالد بن الوليد (سيف الله) فى عام ٦٥١ على جيش النوبة وحلفائهم البجاويين .

لم يكن للبجا اتصال مباشر بالعرب حتى مجئ عبيد الله بن هدهب ، حاكم مصر العليا ، الذى ابرم معهم اتفاقية (هذا دلالة على أن البجا كانوا وكعادتهم يهاجمون جنوب مصر وأن هجومهم فى هذه المرة قد تم صده) يدفعون بموجبها ٣٠٠ جمل صغير وان لا يعطوا الامان أو الحماية للعبيد الفارين وان لا يعترضوا جميع المسلمين المتواجدين بينهم . يخلص من تلك الاتفاقية بأن البجا لم يستسلموا بسهولة لذلك الغزو ، كما يستنتج أيضاً بأن العرب كانوا يستغلون مناجم الذهب والزمرد الموجودين فى الصحراء الشرقية . لم تنقطع هجمات البجا لوادى النيل مما حدى فى عام ٨٣١ بالخليفة المأمون بن هارون الرشيد ان يرسل جيشاً كبيراً يقوده عبدالله بن جهم الذى استطاع ان يبرم اتفاقية مع زعيم البجا الذى عرب اسمه الى كانون عبدالعزيز . من نتائج هذه الاتفاقية أنها دعمت الاتفاقية السابقة ووسعت من بنودها . بموجب هذه الاتفاقية كان على البجا أن يدفعوا ١٠٠ جمل أو ٣٠٠ دينار ، اضافة لإ لتزامهم بحماية ممتلكات المسلمين ودور عبادتهم وأن يمنعوا الدعم لاعدائهم ويسلموا الرهائن وان يقروا بسلطة الخليفة على الارض الممتدة من اسوان شمالاً الى دهلك جنوباً . يجدر بالذكر أن الوجود الاسلامى فى منطقة البجا امتد الى قرابة السبعين عاماً قبل حملة عبدالله بن جهم . كشف عن هذا الوجود باللوحة التى تم التعرف عليها على أحدى قبور المسلمين فى منطقة تقع ثمانين ميلاً من الشمال الشرقى من مسمار الحالية .

بعد عشرين عاماً من توقيع هذه الاتفاقية قامت انتفاضة بجاوية جديدة ضد مصر . فى

عام ٨٥٤ اوقع البجا ، تحت قيادة زعيمهم أولباب (على بابا) مجزرة شملت جميع العرب القاطنين حول المناجم واطلقوا سراح جميع العبيد ورفضوا دفع الجزية . اكتسح هجومهم هذا جميع المدن والقرى ووصل حتى اسنا وأوقعوا بها دماراً شديداً . ادى ذلك انسابا بن اسحق ، آخر حاكم عربى على مصر ، إعداد حملة كاملة التجهيز بقيادة محمد عبدالله بن جامع . زودت هذه الحملة بستة سفن ارسلت عن طريق البحر الى سانقا بالقرب من عيذاب . تحرك من هنالك ابن جامع على رأس ٧٠٠٠ محارب (قدر ابن خلدون جيش بن جامع بحوالى ٢٠٫٠٠٠ مقاتل) اتجه بهم نحو كوس . اتبع البجا ضد هذه الحملة تكتيكاً حذراً ابتعدوا فيه عن الاشتباك المباشر ولكنهم قطعوا فيه طرق الامداد معرضين بذلك جيش العدو للجوع والعطش . عندما حاول ابن جامع الوصول لعيذاب على الساحل ، حيث سفن الامداد ، كان لابد من التحام الجيشين فى مكان بالقرب من جبل زبارة . يتكون الجيش البجاوى من رجال يحملون الرماح ويمتطون الجمال . ولكن إبن جامع ابتدع خدعة استعمل فيها اجراساً تعلق على اعناق خيولهم . تسببت هذه الخدعة فى اثارة جمال البجا مما افقدهم توازنهم وادى فى نهاية الأمر الى هزيمتهم . بذلك كتب للعرب النصر مرة أخرى والافراج عن رهائنهم وتجديد اتفاقية بن جهم وإرسال ابن أخ اولباب ، الذى خلفه فى الزعامة ، الى بغداد لمقابلة الخليفة جعفر المتوكل .

ذكر المؤرخ اليعقوبى فى كتابه " كتاب البلدان " الذى كتبه فى القرن التاسع الميلادى وجود تسع ممالك بجاوية فى المنطقة الممتدة من اسوان الى مصوع وهى كالآتى :

١ – تانكش – امتد نفوذها من اسوان الى خور بركة . سكان هذه المملكة كانوا من قبائل شتى مثل الحدارب والزنافيق والاربجدا وغيرهم . عرفت هذه المملكة بمناجم الذهب والزمرد والرخام .

٢ – بلجين – أرض المدن الكثيرة – سكان هذه المملكة كانوا من الوثنيين والسحرة الذين كانوا يزيلون أهداب عيونهم وأسنانهم الامامية .

٣ – بازين – كانت تجاوز بلجين من جهة ومملكة علوة النوبية من جهة أخرى .

٤ – جارين – امتدت من بادئ على البحر الأحمر الى خور بركة . وكان يحكمها ملك ذو

نفوذ كبير .

٥ - كيتعا - تقع بين بادئ وفيكون . لايعرف عنها الكثير .

٦ - نجاش - كانت عصمتها كعبيرَ على الساحل بالقرب من دهلك . سكانها كانوا من التجار المسيحيين .

تانكش كانت اكثر هذه الممالك شهرة وكان يقطنها الحدارب وتوابعهم والزنافيق الذين قال عنهم المقريزى نقلاً عن ابن سليم :

تعيش بين البجا قومية أخرى هى الزنافيق . كانوا يخضعون للحدارب رغم تفوقهم العددى عليهم ، كانوا يخدمونهم ويقومون على رعى حيواناتهم وحراستها . اضافة لذلك كان كل زعيم حدربى يمتلك مجموعة من الزنافيق الارقاء الذين كانوا يتوارثونهم .

يدل هذا دلالة واضحة على النظام الطبقى الذى جلبه الحدارب معهم من الجزيرة العربية ومارسوه على القبائل البجاوية ، وهو نفس النظام الذى كان سائداً وسط السبئيين قبلهم وبقيت آثاره الى القرن العشرين . لذلك فالحدارب كانوا يمثلون طبقة حاكمة بسبب انتمائهم العربى وتحولهم للدين الاسلامى الذى اعتنقوه منذ زمن بعيد (هذا رغم رأى المسعودى فيهم بأن اسلامهم كان رقيقا) . أما القبائل الخاضعة لنفوذهم فكانت تدين بوثنية مقرونة بمسيحية ضعيفه وبقيت على ذلك حتى القرن الرابع عشر .

هذه هى القبائل التى اختلط العرب القادمون من مصر بها وكانت معروفة لكتابهم ورحالتهم . أما معرفتهم بالقبائل البجاوية الاخرى فقد اتسمت بكثير من السطحية والضحالة . ومملكتا بلجين وبازين اللتان ذكرهما المسعودى قد يكون ساكنيها من القبائل البجاوية الشبيهة بالزنافيق ولكنهم لم يكونوا خاضعين للحدارب . قد تكون هى نفس القبائل التى ذكرهم ابن سليم ووصفهم بأنهم يتحدثون لغة خاصة بهم وأنهم يعيشون حياة بداوة فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر . تنقسم هذه المجموعة الى قبائل متعددة وكانوا يعتقدون فى الوثنية أوكانوا يعبدون الشيطان يساعدهم فى ذلك بعض السحرة والكهان . كانوا يعيشون فى كهوف أو فى خيام من الجلد ووجبتهم الرئيسية كانت من اللبن ولحوم الحيوانات مثل الابقار والضأن ، أما أسلحتهم فكانت من الرماح والدروع المستديرة

والسهام السامة . رغم أنهم يمتلكون جمالاً كثيرة الا أن ابقارهم كانت أكثر شهرة بلونها الجذاب وقرونها الطويلة وإدرارها المتميز . ذكر اليعقوبى بأن عاصمتهم كانت تقع بالقرب من المنطقة الواقعة بين بركة وأنسيبا وكانت تسمى هجر أو ديرهب . أنا شخصياً لا اتفق مع هذا الرأى اذ اعتقد بأنها لم تبعد كثيراً عن النيل أو أنها كانت على الطريق الواقع بين بلاد الذهب وعيذاب وغالبية سكانها كانوا من الحدارب .

أما الممالك الاخرى التى ذكرها المسعودى فلا أظن أن لها وجوداً حقيقياً وأنها لم تكن إلا نسجاً من الخيال . والملك العظيم الذى حكم جارين قد لا يكون الا امتداداً لملوك أكسوم ، كما قد لا تكون كعبير ، عاصمة نجاش ، غير مدينة أدوليس . وذكر ابن حوقل (عام ٩٩٧) نهراً يسمى دقن أو دوجن ينبع من مرتفعات التقرى وينتشر متلاشياً فى المنخفضات الغربية فى أرض مأهولة بالسكان . قد لايكون المقصود بهذا النهر الا القاش لان بيز ، أحد الكتاب البرتغاليين ، قد ذكره أيضاً فى القرن السابع عشر وقال ان اسمه دقين ، ويتفرع الى فروع كثيرة فى منطقة يسكنها البلو الا أن يختفى نهائياً . المكان الذى يتفرع فيه ذلك النهر سمى أيضاً بالتاكا . استقى بيز معلوماته من مصدر أخر هو احد المغامرين البرتغال الذين صاحبوا ولى العهد التقرى (بحر النجاش) الى تلك الاصقاع . ويقال ان هذا النهر كان يلتقى بنهر التكازى (عطبرة) . قد يصل نهر القاش الى تلك المنطقة فى تلك الفترة ، أو قد يصل أيضاً الى النيل . ويعتقد ان بعض الاسماء القديمة لا زالت متسعملة الى يومنا هذا . مثال على ذلك قرية دقين الحالية التى تعنى بالبداوييت الأثافى .

عندما قرر بن جامع الرجوع الى مصر قررت بعض القبائل المكونة لجيشه مثل ربيعة وجهينه البقاء فى منطقة عيتباى ، واستطاعت ربيعة لاحقاً أن تأمن مصالحها وفرض سيطرتها على السكان المحليين بالمصاهرة ثم بالتحالف . سعت بعض القبائل العربية الاخرى الوصول الى ماوصلت اليه ربيعة من سيادة ومكانة ولكنها لم توفق .

عاودت مناجم الصحراء نشاطها على نفس طريقة السخرة التى كان يتبعها الفراعنة ثم البطالسة ، ان لمْ تكن اكثر رعونة وقسوة . انصب الاهتمام الاكبر على الزمرد اكثر من الذهب مما زاد من انتاجه . حاول الخلفاء بسط سلطانهم الكامل على المناجم وانتاجها

ولكنهم قنعوا فى النهاية بثلث أو حتى بخمس الانتاج . لم يتضاعف انتاج هذه المناجم الا فى العهد الفاطمى . تدفق الذهب والزمرد والتوباز والفيروز وغيرها من الاحجار الكريمة الى القاهرة مما استحقت معها بحق تسمية الف ليلة وليلة . ويقال ان ابنة الخليفة الفاطمى المعز (٩٥٣ - ٩٧٥) امتلكت من زمرد تلك المناجم ما يساوى حمولته خمسة جوالات ، مما جعل كثيراً من الخلفاء الفاطميين يتطلع الى تلك الثروة الثمينة .

هذا القدر من الثروة كان كافياً لان يتطاحن العرب من أجله . كان السبق فى ذلك لأبى العمرى عبدالرحمن ، حفيد الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى اعد جيشاً جراراً أعاد به فتح مناجم وادى العلاقى فى عام ٨٧٨ وقضى بذلك على طموح المغامرين ، حتى وان كان ذلك امير مصر أحمد بن طولون ، الذى تعامل معه بكثير من الاحترام والتقدير . ويعتقد بأن القلاع فى درهيب ووادى العلاقى هى أحد الحصون التى شيدها ابو العمرى ، وفى نفس الوقت كان يستعمل ميناء عيذاب لامداد المناجم بالمعدات والمواد رغم محاولة بن طولون الفاشلة لايقاف ذلك المدد .

تحالفت مع أبى العمرى بعض القبائل العربية مثل مضر وبنى تميم وكان قاسياً فى التعامل معهم . أما ربيعة ، التى ناصبته العداء فى بادئ الأمر، آثرت التحالف مع البجا . وكتب لهذا التحالف الاخير النصر بعد معارك عديدة وضارية قتل فيها ، على يد أحد البجاويين ، شقيق أبى العمرى فى موقعة ميسا وهو فى طريقه من عيذاب ليمد شقيقه بالمؤن المطلوبة . وفى وقت لاحق قتل أبى العمرى نفسه عندما فر من حوله جيشه وارسل رأسه الى بن طولون فى مصر .

وبهذا النصر كتبت لربيعة الغلبة والسيادة ويذكر المسعودى بأن زعيمهم بشير بن مروان بن اسحق امتلك تحت امرته فى عام ٩٤٠ جيشاً قوامة ٣٠٠٠ من العرب و ٣٠,٠٠٠ من الحدارب الذين اعتنقوا الاسلام فى هذه المرحلة (يعتقد مؤلف كتاب مروج الذهب بأن هذه الارقام مبالغ فيها) . ويقال أن الحدارب الذين اعتنقوا الاسلام الان كانوا يمتلكون الجمال ويتصفون بالكرم والشهامة ويعيشون فى مجموعات صغيرة فى الجبال والصحارى فى ظروف ووضعية لا تختلف عما هم عليه الآن .

لم تكن ربيعة ومضر وجهينة هى القبائل العربية الوحيدة التى استقرت فى ديار البجا ،

اذ أن مجموعة صغيرة من قبيلة الحوازين عبرت البحر الأحمر فى القرن السابع واستقرت بالحماسين حيث انتحلت لاحقا اسم الحلنقة ، ثم طردوا من هنالك بسبب العداوة القبلية ، وانتقلوا مرة أخرى ، عبر وادى ميرب (القاش) ليستقروا بالتاكا حول جبال تولوس (كسلا) . بذلك يعتبر الحلنقة من أوائل العرب المسلمين الذين استقروا وسط البجا . والقبائل التى وجدوها هنالك اختفت تماماً ، غير أن هنالك اعتقاد بأن القبائل الرئيسية فى تلك المنطقة هى الحفرة والكربكناب . وظهر الارتيقة على المسرح فى وقت متأخر حيث استقر جدهم باسفار بسواكن عام ٨٠٠ وزوج ابناءه بنساء بجاويات . نتج عن هذا التزاوج قبائل الأرتيقة والشعاياب والحمران .

كانت قبائل البجا فى عيتباى على اتصال مستمر بالعرب والمسلمين وذلك بفضل ميناء عيذاب الذى كان يعتبر محطة للحجاج وحلقة وصل لتجارة الشرق الأقصى الذاهبة لمصر . هذه الأهمية التجارية لم تتوافق وموقع عيذاب الجغرافى والمناخى ، حيث ان الميناء كان يفتقر للضروريات بما فى ذلك مياه الشرب التى كانت تجلب له من أماكن بعيدة . يعتقد أن ميناء عيذاب انشأ فى عهد البطالسة ووصلت المدينة الى أوج مجدها فى القرنين العاشر والحادى عشر وذلك بفضل تجارة الهند والصين . كانت السفن الصينية عابرة المحيطات تجوب البحر الأحمر محملة بالتوابل مثل القرنفل والقرفة والفلفل وتحمل معها الى الصين القطن والسكر والتمور وبعض الاحياء البحرية التى كان يعشقها الصينيون ويزخر بها البحر الاحمر . توضيداً لهذه التجارة الرابحة أسس الصينيون لنفسهم نفوذاً تجارياً فى عيذاب . لم تعرف أسباب هذه العلاقة الحميمة بين البجا والصينيين ، ولكنها للاسف لم تجد التوثيق اللائق بها .

تمتعت عيذاب ، رغم مساوئ موقعها ورداءة جوها ، برخاء اقتصادى جديد فى القرن الثانى عشر . تسبب فى ذلك الصليبيون الذين احتلوا القدس واقفلوا جميع المنافذ المؤدية الى الحج بإستثناء مرفأ عيذاب الذى لم تطله يدهم .

كان للبجا نصيب لايستهان به من ذلك الرخاء لأنهم كانوا يسيرون القوافل من والى كوش ، وكان يقع عليهم عبء امدادها بما تحتاج اليها من الاشياء المحلية مثل الماء واللبن والحطب وذلك بسبب سيطرتهم على المنطقة الخلفية لعيذاب . لذلك كانوا يقتسمون دخل

لمرفأ مع الحاكم المعين من قبل سلطان مصر . ويروى ابن بطوطة فى زيارته لعيذاب عام ١٣٢٢عن ملك البجا ، الذى كان يسمى بالحدربى ، كان له ثلثى المرفأ والثلث الأخر كان لممثل سلطان مصر . رغم ذلك لم يأمن الحجاج ولا ممتلكاتهم من قساوة الصحراء ولا من هجمات البجا عليهم من حين لآخر . فمثلا في عام ١٣١٦ ، أو قبل فترة وجيزة من زيارة ابن بطوطة هاجم البجا ونهبوا بممثل اليمن ومجموعة كبيرة من التجار المصاحبين له .

كان الوصول الى عيذاب محفوفاً بالخطر اذ كان من الممكن الوصول إليها عن طريق مراكب صغيرة تحمل دائماً اكبر من طاقتها مما يعرض المسافرين للخطر . لهذا لم يكن هنالك كاتب من كتاب ذلك العصر وزار عيذاب ولم يوصفها بكل قبيح وذميم ولاسيما طقسها وسلوك ساكنيها . رغم كل ذلك فإن الحركة التجارية فيها كان نشطة ويحدوا العاملين فيها روح المغامرة حينا والربح فى حين آخر . ووصف المقريزى الحدارب الذين يسيطرون عليها بأنهم اشبه بالحيوان منه بالانسان ، والحجاج الذين كتبت لهم النجاة من رحلة الحج الشاقة تغيرت ملامحهم وأصبحوا كمن بعثوا على التو من قبورهم .

ذكر ابن بطوية وجود بعض الكواهلة بين البجا في عيذاب . ومما لاشك فيه انه كان يعنى الكميلاب الذين هاجروا بسبب خلافات محلية من دنقلا الى عيذاب فى القرن الثالث عشر ، فهم لم يهتموا بالذهب والمناجم كإهتمام ربيعة بذلك . كان همهم الرئيسى هو رعى الحيوان ، كما اشتهروا بمهارة فائقة فى ركوب الخيل وصيد النعام وغيرها من الحيوانات الوحشية مما جعل البجا يعجبون بهم . علاقة البجا بالكواهلة كانت ممتازة وبالذات بعد اسلامهم وكان ذلك سبباً فى المصاهرة بينهم حتى أن قبيلتين بجاويتين هما الامرأر والبشاريين ارتضوا أن ينسبوا الى كاهل .

اما المجموعة العربية الاخرى ذات الأهمية والتى اختلطت بالبجا هى قبيلة الاشراف التى ظهرت فى سواكن لاول مرة فى عام ١٣٥٠ ، ثم الملهيتكناب والسيقولاب وجميعهم ينسبون الى بكر ودخلوا السودان مع الحملة التى ارسلها ناصر بن قلاوون الى النوبة عام ١٢٨٩ . عندما رجع جيشهم آثروا البقاء بالسودان وهاجروا الى القاش عن طريق نهر عطبرة .

لم يعرف بالتحديد مستوى قبضة سلاطين مصر على المنطقة الواقعة جنوب أسوان لان

سلطتهم بالذات فى عيذاب وسواكن كانت تواجه مجموعة من العقبات . تعاقب الحكام على مصر بدءاً بالامويين والطولونيين والإخشيديين والفاطميين وأخيراً الأيوبيين والشراكسة والمماليك . قليل من هؤلاء الحكام كان يتمتع بقوة فعلية كالتى تمتع بها ابن طولون وبيرس بيه . رغم تعاقب هؤلاء الحكام على مصر الا أنهم لم يستطيعوا فرض سلطة حقيقية على المنطقة الواقعة جنوب أسوان . بل قنعوا بما تجود به هذه المنطقة على مصر من ذهب وأحجار كريمة وضرائب متحصلة من ميناء عيذاب اضافة للجنود السود لينخرطوا فى جيش مصر . والبجا من جانبهم لم يكفوا عن الهجوم على مصر كما كانوا يفعلون أيام الرومان ، بل كانت هجماتهم تزداد أيام الجفاف والمجاعة وتتسبب فى كثيرمن الاحيان فى قطع طرق التجارة بين عيذاب وكوس مما يستوجب حملات تأديبية بين الحين والآخر . وبصورة عامة كان سلاطين مصر قانعين بترك المنطقة وشأنها . ثم بدأت تتضائل أهمية عيذاب كميناء للحجاج وبالذات بعد انتصار صلاح الدين على الدولة اللاتينية فى القدس فى موقعة حطين عام ١١٨٧ . ولم تأت نهاية عيذاب الا على يد السلطان المملوكى بيرس بيه الذى قام بتدميرها والقضاء على سلطان الحدارب فى عيتباى وذلك انتقاماً على النهب والسلب اللذان تعرضت لهما قافلة تحمل الهدايا الى مكه .

بعد ذلك انتقلت التجارة الى سواكن التى استقبلت أول سفينة تجارية هندية قبل أربعة أعوام من تدمير عيذاب . منذ ذلك الحين ولأربعة قرون لاحقه اصبحت سواكن هى الميناء الحيوى الذى يحتكر التجارة على جميع الساحل الغربى للبحر الاحمر . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر بدأ نفوذ الحدارب يتلاشى بسبب الاستنزاف الذى تعرضت له مناجم الذهب والزمرد فى عهد محمد حسن بن قلاوون مما جعله يصرف النظر عنها . ومع تدمير عيذاب بدأ الحدارب يهاجرون نحو الجنوب مواصلين لهجرة بدأت منذ زمن بعيد . وتروى الاسطورة ان البشاريين طردوا البلو (كما يجب ان يسموا الان) من عيتباى فى القرن الخامس عشر ليحتموا بجبال أركويت وسنكات ، وظلوا فى تلك المواقع بصحبة عبيدهم الى أن ظهر الفونج على المسرح .

يذكر ان الفونج أرسلوا حملة هزموا فيها قوة مكونة من البلو والارتيقة فى سواكن عام ١٥٠٦ و احتلوا أثرها الميناء . وأنا شخصياً اعتقد بأن هذه القصة غير صحيحة والدليل

على ذلك ان عمارة دنقس ، أول ملوك الفونج ، أسس هذه المملكة بمساعدة العبدلاب فى الجزيرة قبل سنتين من ذلك التاريخ وبالتالى فإنه يستبعد ان تصل جيوشه فى هذه الفترة الوجيزة الى تلك الاصقاع البعيدة . تزامن توسع الفونج ، أو بالاحرى حكم العبدلاب ، نحو الشرق مع المانجلك الكبير العجيب عبدالله الذى هزم البلو عام ١٥٨٠ أو قبل ذلك بقليل ومكث فى سواكن طويلا وله يرجع الفضل فى حفر حفير الفولة .

احتل الاتراك سواكن عام ١٥٢٠ وحينها وجدوا أن الارتيقة حلوا محل البلو فى السيادة على الميناء . وتحكى بعض أساطير الهدندوة بأن نفوذ البلو أصبح ينحسر شيئاً فشيئاً لدرجة أن مجموعة صغيرة من الهدندوة (حوالى اربعين فارساً) استطاعت ان تطرد البلو نهائياً الى المنطقة الواقعة خلف خور بركة . وتضيف الاسطورة ايضاً بأن شيخ البلو (شيكاتيل) أو ملك البلو الذى استمد اسمه من اسم جبل فى شمال سنكات ، كان صهراً لفارس هدندوى قام بقتله وطرد عشيرته . ويمكن الوقوف على النسب المزعوم فى العلاقة القبلية التالية :

محمد هداب (الأسد) = إبنة شيكاتيل زعيم البلو

شريف | من البلو

محمد مبارك = هدات بنت محمد العلوى

باركوين (المهاب) | شريفة

هدندوة

وكالعادة فإن الروايات القبلية هى أقل الروايات مصداقية لانها تعتمد على الرواية القولية والسمعية المتواترة عبر الأجيال وغالبا ما تكون عرضة لتغيير فى الاسماء والتواريخ . وفى هذا المضمار فإن البجا لايختلفون عن القبائل الاخرى . ويعتقد بأن البشاريين هم أول من اكتسب كياناً قبلياً مستقلا واستطاعوا طرد البلو من عيتباى فى القرن الخامس عشر . يلى ذلك الهدندوة الذين قاموا ايضاً بطرد البلو من منطقة سنكات فى القرن السابع عشر . أما الامرأر ، الذين يعيشون فى التلال الواقعة جنوب ما يعرف الان ببوتسودان ، لم يظهروا كوحدة قبلية منفصلة حتى عام ١٧٠٠ ، غير ان حروبهم مع

الهدندوة معروفة قبل ذلك التأريخ ، أى فى النصف الاول من القرن السابع عشر .

يعتقد أيضاً فى تلك الاثناء ان البجا الشماليين ، بتأثير من العرب ، تخلو عن الحربة كسلاح وأخذوا يتسلحون بالسيف المسطح الطويل الذى أخذوه عن الصليبيين . ومنذ ذلك الحين فهم اثبتوا جدارة فائقة فى استعماله . غير ان الحربة ظلت السلاح الرئيسى وسط قبائل البجا الجنوبية والسبب فى ذلك انهم كانوا أقل إختلاطاً بالعرب ، علاوة على أن السيف كان ميزة تتصف بها فقط الطبقة الارستقراطية التى كانت مهيمنة عليهم . والحراب المتسعملة لديهم هى التى ذكرها المقريزى نقلا عن ابن سليم حيث قال انها تسمى بالسباعية ، دلالة على طولها الذى يصل الى سبعة أشبار ، أى أن نصلها كان ثلاثة أشبار ومقبضها اربعة فقط . وفى الجانب الاخر يعتقد بنت أن الاسم ينحدر من أصل اكسومى . ولكن أنا شخصياً أجد نفسى اتفق مع فولبير الذى يرجع الاسم الى جبال سباعى فى ا' سحراء الشرقية لمصر حيث توجد مناجم الحديد فى وداى زيدون . يقال بأن هذه الحراب كانت تقتنى من نساء تلك القبائل التى تعيش فى تلك المنطقة وتحتكر صناعتها وتضاجع زبائنها ثم تقوم بقتل جميع الابناء الذكور عند ولادتهم .

اعتنق جميع البجا الاسلام فى الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لذلك كانوا يرون من الكياسة والوجاهة الانتساب الى العرب . فمثلا نجد ان البشاريين والامرأر اختاروا ، كما ذكر سابقاً ، الانتساب الى كاهل الذى سكنت ذريته منذ فترة بعيدة بين البجا . والهدندوة فى الجانب الاخر اختاروا لنفسهم شريفاً أخر ليكون جداً لهم . لاشك ان هذه دعاوى سخيفة تفتقد الحقيقة والموضوعية ولكن الذى لاشك فيه أن البجا الشماليين لاتخلوا عروقهم من الدم العربى . ومن المحق أيضاً أن نذكر أن تزاوجاً ومصاهرة قد تمت ولكن بنسب متفاوتة ، بين البجا والقبائل العربية مثل الكواهلة وجهينة والحضارمة وربيعة والاشراف وغيرهم من متطفلى العرب الذين تميزوا هم انفسهم بكميات ضئيلة من دم قحطان واسماعيل .

ومع اعتناقهم للاسلام تخلى البجا عن نظام الانتساب للام . وفى ذلك يقول مورى بأن نساؤهم فقدوا كثيراً من الحرية التى كانوا يتمتعون بها ، ولكنهم فى المقابل كسبوا مكانة اخلاقية ذات اعتبار " يتصف العرف والقانون البجاوى ، على المستوى النظرى ، بكثير من

الصرامة والتشدد . ولكن غالبا ما يخرق هذا العرف مما ينجم عنه كثير من القتل والمصادمات والانتقام مما يستدعى تعويضاً مادياً أو معنوياً . ونجد ان الامرأر والبشاريين اكثر تساهلاً من الهدندوة . فمثلاً رفضت الزعامة القبلية للبشاريين فى عام ١٩٣٢ إجازة الغرامة المقررة لجريمة الزنا والتى كان قوامها ناقة واحدة أو مايساوى فقط ثمانية جنيهات مصرية وذلك بناءاً على الزعم بأن الازواج انفسهم يساعدون على ذلك ويعلق دى بلفوند على الجمال الذى تتصف به المرأة الامرأرية من البلقاب / علياب الذين لا يغالون فى ردع الزنا .

تسببت مثل هذه الممارسات فى كثير من الامراض التناسلية التى كان لها تأثير كبير على مستوى الانجاب . هذه العلائق الغريبة كانت تمارس كثيراً وتجد طريقها حتى الى اكثر القبائل محافظة لدرجة أنها كانت تسمح بالحرية الكاملة للمرأة فى مناسبات الافراح مثل الزواج والختان . ويروى أن المرأة تزداد تقديراً ومكانة بقدر ما تجلبها لنفسها من اعجاب الرجال .

الفصل الثامن

اخضاع التقرى

(٧٥٠ - ١٧٠٠)

يرتع النمر مع وجود الماعز — مثل تقرى

أدت هزيمة أكسوم فى القرن الثامن عشر الى إسدال ستار لمدة سبعة او ثمانية قرون تاليه للشعب الذى كانوا يحكمونه . والممالك البجاوية الثلاثة التى ذكرها اليعقوبى قد تكون دويلات خلفت مملكة اكسوم ، ثم لم يكتب لها البقاء لفترة طويلة حيث اندثرت وحلت الفوضى والحروب الاهلية بالمنطقة . هذه القبائل التى تناحرت للسلطة تناست عن ماضيها ، واصبح شغلها الشاغل ، بعد اعتناقها للاسلام ، أن تجد لها نسباً يوصلها بسيدنا محمد .

أهم هذه المجموعات هى الألمدا الذين يوجد منهم فى السودان حوالى ٤٠٠٠ نسمة ، ويوجد تسعة أضعاف هذا العدد فى اريتريا . أسست هذه المجموعة ، لفترة قصيرة ، مملكة على الساحل بين مصوع وعقيق . لقد احتفظوا ببعض نفوذهم التاريخى قبل خضوعهم لبيت عسقدى فى القرن السادس عشر ، لذلك فهم كانوا يمانعون من التزاوج من الطبقة الارستقراطية . يقال أنهم ينتمون الى المودار ، احدى قبائل قحطان المفقودة ، وذلك بسبب التشابة فى الاسماء الا أن هذه الافتراض يفتقد الدليل القاطع . اضافة لذلك فهم ينسبون أنفسهم الى محمود المداى الذى انحدرت منه أيضاً قبائل ميكال والترقيلا الحمر والسمر . أما الحميسان وعد فاضل فهم يعتقدون بأنهم أحفاد محمود أبومكروه الذى تزوج من بنت من البلو . وفى الجانب الآخر يدعى الابهاشيلا القرابة لبيت معلا . ويحاول الرقيبات ، ولسوء حظهم ، ربط نسبهم بعبدالله بن ابى بكر الصديق الذى يعرفه الجميع بأنه مات ولم يكن له عقب . كل هذه الادعاءات لامكان لها فى التاريخ . وكل مايقال عن هذا الموضوع بأنهم ينحدرون من اصول قديمة تنتمى الى أكسوم . وبعد اندثار هذه المملكة دخلت هذه القبائل فى حروب ونزاعات طويلة ، ثم لم يعرف عنهم شيئاً حتى القرن السادس عشر والسابع عشر ، أى الفترة التى تمت فيها هزيمتهم واستعبادهم على يد

مجموعة صغيرة من الداخل افضل منهم تسلحاً ومقدرة .

تزامنت هذه الفترة الزمنية مع المرحلة التى ازدهرت ثم اندثرت فيها ميناء بادئ على جزيرة إيرى ، خمسة عشر ميلا جنوب قرية عقيق الحالية . ويقال انها ازدهرت فى الفترة ما بين ٦٠٠ - ١١٥٠ وهجرت فجاة ثم دمرت نهائياً فى القرن الثانى عشر . سكان هذه الميناء كانوا من العرب الذين اختلطوا بالقبائل المحلية (البجا) وكانوا يتاجرون فى دروع السلاحف واللؤلؤ والمرمر والعاج ، ولم يبق من ذلك الميناء فى الوقت الحاضر غير احواض يستغلها الرعاة أثناء فصل الشتاء .

فى القرن السادس عشر هبط بيت عسقدى ، مؤسس الحباب والقبائل الاريترية الاخرى ، من هضبة أكيلى قوزاى واكتسحوا القبائل الساحلية بين أنسيبا ونصبوا من أنفسهم طبقة إقطاعية لها السيادة والسلطة وذلك تقليداً للبلو الذين كانوا يسيطرون فى الماضى على المنطقة الواقعة بين سواكن ومزاقا . عند التقاء نهرى عطبرة وستيت ، اضافة للمنطقة الخلفية لمصوع . هذه هى نفس المنطقة التى حددها لهم جون سينكس فى خارطته عام ١٧٠٩ وكذلك سير بيتر وايش فى كتاب " قصة قصيرة عن نهر النيل " والذى نشر بتكليف من الجمعية الملكية عام ١٦٧٣ ، علاوة على تعليق لوبو اليسوعى من لشبونة الذى عاش لفترة طويلة فى أثيوبيا وزار سواكن وقال عنها انها جزيرة يحتلها الاتراك .

ثم أضاف قائلاً :

كانت جميع السلطة بيد ملك شجاع سمى مملكته بالبلو (نجران القديمة) وسكانها كانوا من المور ورجالها وخيولها واغنامها كانت من أجمل مارأيت وأن بطيخها من الذ ما تذوقت .

يوضح هذا ان البلو ، حتى القرن السابع عشر ، لازالوا يسيطرون سيطرة كاملة على المنطقة الخلفية لسواكن . هذا رغم قناعتى التامة بأنهم طردوا من هنالك حتى قبل مجئ العبدلاب ، أى قبل عام ١٦٠٠ . والدليل على ذلك ان لوبو كان يستقى معلوماته من مصادر أثيوبية كانت تطلق كلمة البلو على جميع سكان شرق السودان . أما الخيول والرجال الذين شدوا انتباهه فلا أظن الا أن يكونوا جزءاً من جيش الفونج . تمت هزيمة البلو على يد

الفونج ، أو بالتحديد العبدلاب ، فى حوالى ١٥٨٠ فى معركة فاصلة دامت ثلاثة أيام فى أسارأمادرهيب على التلال المحيطة بعقيق . قتل فى تلك الموقعة ملكهم محمد ادريس أدارا وهزم جيشهم شر هزيمة ، غير أن فئة صغيره منهم استطاعت ان تفر وتحتمى بمصوع حيث لازالت لهم بقية هنالك .

ضم جيش العبدلاب فريقا من الشعاديناب / جعليين الذين بقوا خلف خطوطهم بعد انسحاب المهاجمين . هذه المجموعة ، مثلها مثل بيت عسقدى ، نصبت من نفسها طبقة حاكمة على نفس المجموعة ، التى كان يستعبدها البلو من قبل ثم هجروهم والتى سموها الان (بما فى ذلك أنفسهم) بالبنى عامر . وتدعى الرواية القبلية ان الاسم مستمد من عامر وهو ابن على نابت الذى كان شيخاً متجولاً يرجع اصله الى الجعليين والملهيتكناب ثم لقى حتفه على يد البلو بعد زواجه من حفيدة محمد ادريس ادارا . عندما بلغ إبنه عامر سن الرشد كان عليه ان يقود الجيش انتقاماً لابية . ومن هنا انتحل المتطفلون الجعليون اسم النابتاب (من نابت) ليتميزوا عن رعيتهم . النظام الطبقى الذى ابتدعوه كان اكثر قسوة من كل الأنظمة التى عهدوها . رغم انهم اخذوا لغة محكوميهم الا أن التزاوج معهم كان محرماً . لذلك نجد ان نظاماً طبقياً شديد الصرامة فرض بين النابتاب والتقرى (رقيقهم الذين يسمون الان هكذا) .

لم يتوقف بعد سحق وتشتيت القبائل المحلية ، وتسببت النزاعات القبلية فى ان يهاجر جزء من المليهتكناب فى منتصف القرن السابع عشر من القاش إلى الساحل جنوب عقيق . اصطدموا هنالك ببيت بهلاى (طبقة ارستقراطية من الحباب تنتمى الى بيت عسقدى) الذى تمت ابادته نهائياً وتحويل رقيقه الى نابتاب البنى عامر . قاد ذلك الصدام الى تكوين مجموعة قبلية جديدة سميت بالأفلندا وطبقتها الحاكمة هى العجيلاب . فى تلك الاثناء دفعت بعض القبائل مثل الحفرة والسنكاتكناب واللبت والكربكناب ، اما بضغط من البلو أو من بعض القبائل البجاوية الاخرى ، الى ما هو معروف الآن بأغوردات ، بالمحافظة الغربية لإريتريا حيث لازالوا هنالك الى يومنا هذا . من هذا نرى ان الساحل الممتد من خور بركة الى مصوع شهد احتلال ثلاثة مجموعات قبلية فى نهاية القرن السابع عشر . هذه المجموعات هى الحباب والبنى عامر والأفلندا ، كل منها يخضع لسيطرة طبقة أجنبية

فرضت نفسها بقوه السلاح لإخضاع غالبية القبائل المحلية .

والعامل الحاسم فى تلك الهيمنة (كما كان فى أوربا فى العصور الوسطى) هو الفرسان المدرعون الذين كانوا يمتطون صهوات الجياد . وفى الجاتب الاخر فإن البجا كانوا كعادتهم يكنون كراهية عميقة للخيل ، ذلك الحيوان الذى لم يستطيعوا تروضه ابداً . فى حسمهم للمعارك كانوا يعتمدون على السرعة الخاطفة والمباغتة والاستبسال . يلبس المحاربون من بيت عسقدى والشعادیناب والعبدلاب الخوذات والدروع الواقية ، كما دججت جيادهم بالبسة واقية أيضاً . لم يكن للبجا الحفاة العراة مقدرة لملاقاة هذه القوة المتطورة بأسلحتهم التقليدية ، رغم ذلك استطاع الهدندوة صد هجمات الفونج عكس قبائل التقرى التى استسلمت بسهولة لمثل تلك الهجمات . ولازالت الذكريات المؤلمة عالقة بالاذهان عن تلك المعارك التي طاردت فيها جيوش الفونج فلول قبائل التقرى التى تبعثرت كالشياه .

كانت الطبقة الحاكمة للبنى عامر والافلاندا من اصول عربية واسلامية لان تحول القبائل التابعة لهم للاسلام كان سريعاً غير ان نوعاً من المسيحية ظل سائداً بين الحباب الى القرن التاسع عشر .

لايهمنا الآن كثيراً الحباب ، الذين تنسب غالبيتهم الآن الى اريتريا . وسوف يكون التركيز على النواحى القبلية والاجتماعية للمجموعتين الاخرتين وبصفة خاصة للبنى عامر .

يرجع النظام الطبقى الذى فرضه النابتاب على القبائل الخاضعة لهم الى اجدادهم البلو الذين جلبو معهم هذا النظام من حضرموت . هذا النظام كان يطبقه المهاجرون من جنوب الجزيرة العربية ونبلاء أكسوم على القبائل الحامية فى جنوب خور بركة .

ابتدعت طبقة النابتاب الارستقراطية نظاماً للعزل والتمييز شديد القسوة والصرامة لدرجة أنه أصبح نموذجاً فريداً يضرب به المثل فى الهيمنة والاستعباد اللذان تمارسهم اقلية قوية على اغلبية مغلوبة على أمرها . فمثلاً نجد ان تعداد النابتاب لا يتعدى ٧٠٠ أو ٨٠٠ نسمة فى حين أن تعداد محكوميهم يفوق الثمانية عشر الف مواطن .

كانت العلاقة بين السيد ورقيقه (التقرى) تتميز بالطابع الشخصى . كل أفراد التقرى كانوا يولدون كرقيق لاحد نبلاء النابتاب ، وبالتالى علاقة النقص الاجتماعى هذه كان من

الصعب الفكاك منها . لم تصل هذه العلاقة الى العبودية بالمعنى الشامل لهذه الكلمة ، اذ كانت لهم بعض الحقوق المعترف بها مثل امتلاك الماشية وغيرها من الامتيازات الشخصية . اضافة لذلك فإنهم لايباعون ولايتنكر عنهم ، الا أنهم كانوا يدخلون فى بعض المقايضات الخاصة ببعض الممارسات الاجتماعية مثل الزواج أو حل بعض النزاعات القبلية . كانت علاقة الهيمنة تظهر جلياً فى بعض الحالات ، مثلاً اذا قتل أو جرح واحد من الرقيق على يد أحد النابتاب فإن تسوية هذا الامر كانت تتم مع سيد الرقيق الذى يدفع التعويض الذى يتفق عليه . ومن ناحية أخرى اذا قُتل واحد من النابتاب على يد أحد الارقاء لم يعاقب القاتل وحده بل طلب من سيده أن يسلم المتهم ومعه خمسة من اقربائه الى أسرة المقتول .

من الناحية النظرية كان هذا النظام يخضع لمجموعة من المنافع المتبادلة اذ أن الرقيق كانوا يدفعون ضريبة ويقومون ببعض الخدمات مقابل الحماية التى توفرلهم وبعض الهدايا التى تقدم لهم فى بعض المناسبات مثل الزواج والولادة والختان وغيرها . من المظاهر الملفتة لذلك النظام هى التفرقة الكاملة لطبقة الرقيق والسبب فى ذلك أن طبقة النابتاب قصدت ممارسة سياسة فرق تسد لغرض توطيد نظام الهيمنة . لذلك لم يكن من الغريب مشاهدة مجموعة من الرقيق المنتمين الى أسرة واحدة ولكنها مفرقة بين مجموعة من نبلاء النابتاب .

وفى نفس الوقت كان هذا النظام يخضع لقدر كبير من الفصل بين الطبقتين . فمثلاً كان من النادر جداً ان يشارك النابتابى رقيقه المسكن أو المرعى . علاوة لذلك فإن النابتابى كان كسولاً ونادراً ما كان يذهب للحقل للعمل ، هذا عكس رقيقه الذين كانوا فى بحث دائم للماء والكلأ للماشية . النابتابى كان يعين زعيماً للمعسكر ، أو بعلعاد كما كان يطلق عليه وكانت واجباته تنحصر فى حفظ النظام وفض النزاعات وتنظيم اعمال الرقيق فضلاً على استقبال الضيوف والسهر على إقامتهم واكرامهم . لذلك كانت خيمته تنصب وسط المعسكر وكان يتقاضى ضريبة لكل فتاة تتزوج فى المعسكر .

رعاية الحيوان وحلبه كانت من المهام الرئيسية التى كان يقوم بها التقرى اذ أن التقاليد كانت تمنع النابتابى القيام بمثل هذه الاعمال . هذه الميزة ، التى كانت سائدة حتى لفترة

قريبة ، هى التى كانت تفرق بين الطبقة الارستقراطية وتابعيها . هذا التميز كان قاصراً للابقار فقط لآن النابتابى الذى ارتبطت حياته برعى الابل لم يعلم شيئاً عن رعى الابقار ، وبالتالى كـان طبيعياً أن تترك رعايتها وحلبها للتقرى الذى ارتبطت حياته اصلاً بهذه المهنة . وفى حقيقة الامر ان النابتابى انتحل صفة عدم حلب الحيوانات تأصيلاً للنظام الطبقى وللتمكين منه .

والغريب فى الأمر أن صفة عدم الحلب لم تكن قاصرة على النابتاب وحدهم ، بل نجدها سائدة أيضاً وسط التقرى أنفسهم . لذلك كان من الممكن مشاهدة مجموعة من التقرى تحلب الماشية ومجموعة أخرى تمتنع عن هذه المهنة . فمثلاً نجد أن مجموعات مثل الألمدا والأسفدا ومجموعات أخرى كانت تمارس هذه المهنة ، وفى الجانب الآخر نجد مجموعة أخرى تضم الحماسين والأبهاشيلا والويلينوهو تمتنع عنها . لم يعرف بالتحديد من أين جاء هذا التمييز ، لانه من المعروف انهم لم يكونوا رقيقاً فى الاصل . يحتمل أن الرق فرض عليهم إما بسبب هزيمتهم من بعض الطبقات المهيمنة أو بسبب طلبهم الحماية منهم .

كان يسمح للرقيق امتلأك الابقار وبعض الحيوانات الاخرى ، لذلك اصبح البعض منهم اكثر ثراءاً حتى من سيده . رغم ذلك فكان هنالك التزام دائم من جانبهم القيام برعاية الماشية وحلبها وتوفير السمن والمنتوجات الأخرى متى ما استدعت الحوجة لذلك . اضافة لذلك كان يطلب منهم فى المناسبات مثل الزواج والوفاة توفير الحيوانات اما للبن أو اللحم وكذلك توفير العمالة اليدوية والحيوانات لترحيل السيد ومتاعه .

اختفت فى الأونة الاخيرة أو ندر استعمال هذه العادات وحل محلها تبادل الهدايا فى المناسبات حتى اصبحت هذه العادة سائدة بين الرقيق انفسهم وليست بينهم وبين النابتابى كما كان متبعاً فى الماضى . ليس ذلك فقط بل أن مفهوم العبودية نفسه اصبح اقل شيوعاً هذه الايام ، اذ انه أصبح من الصعوبة بمكان التمييز بين الارقاء وأسيادهم ، وان اللبس والسلاح واستعمال الحيوان اعتبروا نوعاً من العادة والتذوق اكثر منه تقليداً يشترط إتباعه والتقيد به . كما لم يلتزم الرقيق بعدم ركوب الخيل أو لبس العمامة أو حمل السيف أو وضع سرج على ظهر الجمل كما كان عليه الحال فى الماضى . رغم ماطرأ من تغير فى

العلاقة بين الطبقتين الا أن التزاوج بينهما لم يكن معهوداً ، على الاقل بين نابتاب السودان ورقيقهم وذلك بسبب المهر الغالى الذى كان يطلبه النابتاب لزواج بناتهم ، علاوة على التكاليف الباهظة الاخرى لمراسيم الزواج .

ولعل أهم صفة يصر النابتاب الحفاظ عليها هى اصرارهم على تحصيل الجزية من الرقيق وذلك تأكيداً لحالة الرق من جانب واحد ولتوطيد صفة السيادة من جانب أخر . ويظهر ان قوانين ميراث الرقيق لم تختلف كثيراً عن قوانين الشريعة وبالذات ما يخص فصل الملكية وحق الجميع فى الميراث ، الا أنه فى بداية القرن الثامن عشر كان من الشائع أن يرث الإبن الاكبر جميع الرقيق شريطة أن يقوموا بجميع الخدمات المطلوبة منهم بما فى ذلك حلب الماشية لجميع أفراد الاسرة . كانت الاتاوات تجمع لزعيم قبيلة النابتاب (دقلل) ، وكل زعيم نابتابى يقوم بهذه المهمة من رقيقه كان له نصيب من المال المتحصل وسمى ذلك بريال مشنقال لتسهيل عملية جمع الاتاوات من مجموعات الرقيق الكبيرة والمتفرقة . كان زعيم القبيلة يوكل هذه المهمة لاحد أقربائه ويسمى ذلك الشخص بِشرْفاف ، وهى كلمة تقرية قصد بها جزء أو حصة . لان هذا الشخص كان يعطى نصيباً من المال المتحصل . هذا الاجراء كان من شأنه أن يزيل عبئاً كبيراً عن كاهل زعيم الاسرة وفى نفس الوقت كان يجد استحساناً ورضاً من أقربائه الذين لايمتلكون رقيقاً . ومع مجئ الحكم المصرى استبدلت الاتاوات بضريبة محددة تدفع للدقلل ، وفى عام ١٨٥٠ عينت الحكومة بعض الزعماء لذلك الغرض . لم يغير هذا الاجراء النظام السائد فى الماضى الا أنه اضاف عبئاً جديداً للرقيق الذين كان عليهم دفع الضريبة مرتين ، مرة للزعيم الرسمى ومرة أخرى للشرفاف . فرض ذلك النظام لجميع القبائل الناطقة بالتقرى والتى خضعت لهيمنة النابتاب والبلو بعد هروبهم جنوباً نحو مصوع ، أى بعد أن تخلى عنهم أوهجرهم رقيقهم .

وعند الحديث عن البنى عامر لابد من التمييز بين مجموعين متميزتين . تتكون المجموعة الاولى من بقايا تقرية أهم ما يمثلها الآن هى الألمدا والأسفدا والحماسين - جميعها قبائل ترجع اصولها الى العنصر الحامى - السامى . أما المجموعة الثانية فتتألف من القبائل الاصلية مثل اللبت والسنكاتكناب والحفرة واللبس والهدويقوبوياب والكربكناب وغيرها التى

تعتبر اكثر المجموعات الحامية نقاءاً بالمقارنة لمجموعة التقرى . تتحدث هذه القبائل بالبدواييت وتنتشر فى المنطقة الواقعة بين سنكات وعطبرة . وفى وقت لاحق دفعت هذه المجموعة الى الجنوب إما بسبب البلو الذين تقهقروا عن عيتباى أو بسبب قوة أخرى من الشمال أدت الى طردهم مع البلو . أما الحفرة والكربكناب فهم أكثر القبائل تواجداً فى الجنوب وطردوا فى مرحلة ما الى تلال أريتريا . المجموعات الأخرى على الشمال منهم فهى وان لم تخضع بصفة مستمرة للبلو الا أنها قد خضعت لنفوذهم لبعض الوقت حتى تم انصهارها كليا فى البنى عامر . لذلك ظلوا مجموعة مستقلة تدين بولاء اسمى للدقلل كزعيم قبلى الا أنهم لم يقدموا مطلقاً أى خدمات لأى فرد من أفراد طبقة النابتاب .

يعتقد البعض ان المجموعة الاخيرة تنتمى الى الهدندوة رغم تبعيتها الحديثة للبنى عامر ، وان زيادة حدثت لبعضهم وبالذات الهدويقوبوياب وربما اللبت ، وهذه المجموعة هى التى يعتقد بأنها اكثر السلالات البجاوية قدماً وعراقه . وثانياً ، اضافة لذلك اسم سنكاتكناب (سكان سنكات) الذى تحمله واحدة من المجموعات رغم انه لايوجد واحد منهم فى سنكات أو حتى بالقرب منها . واخيراً الاسم الجامع الذى يعرفون به الان وهو الحدارب وهو نفس الاسم الذى كان يطلق على البلو فى الماضى .

هؤلاء الآن اكثر قبائل البنى عامر بداوة وتخلفا واكثرهم شراسة ، ثم أنهم اقلهم اختلاطاً بالغريب حتى ظلوا فى عزلة تامة كالوعل الذى يعيش فى جبالهم متعتمدين فى حياتهم اعتماداً كاملاً على حليب الماعز . والحقيقة انهم لم يخضعوا لنظام العبودية السائد وسط البنى عامر مما يؤكد بأنهم لم يشكلوا جزءاً من مجموعات الرقيق التى بقيت بعد هزيمة البلو . المحتمل انهم ارتضوا الارتباط بالبنى عامر لطلب الحماية منهم . لذلك فإن اسم الحدارب اطلق عليهم عن طريق الخطأ بسبب لغتهم وروابطهم السابقة مع البلو .

يمكن مشاهدة الاختلاف الى يومنا هذا بين المجموعتين اللتين كانتا تسميان بالرقيق . قد لا تختلف المجموعتان فى التقاليد غير أن إختلافهم لازال واضحاً فى اللغة ثم أنه اكثر وضوحاً فى السلوك والتكوين الشخصى . فقد التقرى ، بسبب التشتت والعبودية ، كل معانى الاعتزاز بالنفس بل اكتسبوا نوعاً من الاذعان بحيث يسهل انقيادهم السريع لأى سلطة خارجية . وفى نفس الوقت فهم يتميزون بالخجل والانعزالية والشك فى الغريب

جعل منهم هذا اكثر قبولاً لما يقرر لهم من دون نقاش أو ابداء لأى رأى ، وتطبعوا فوق ذلك بالطاعة العمياء والاعتماد على الغير وبعدم المقدرة على القيام بأى عمل جماعى .

وفى المقابل نجد الحدارب اكثر شبها بالقبائل البجاوية الشمالية الذين يتحدثون بلغتهم ولكنهم ، كالتقرى ، خجولين وانعزاليين ، ولكن لأسباب أخرى مختلفة . فهم يتميزون بالخشونة والاستقلالية والاعتماد على النفس وبعدم الرضى بالتدخل فى شئونهم الخاصة . رغم ذلك فإن الروابط لازالت قائمة ليس بينهم وبين التقرى فقط ولكن بين جميع المجموعات الحامية الأخرى واكثر الامثلة تطابقاً لهذا الموقف هو ماذكره مستر هكسلى عن قبيلة المساى حيث قال : (هنالك مزيج غريب بين غطرسة الذكور وليونة الأناث) .

ومن هنا نفضى الى القول بأن البنى عامر لايمثلون قبيلة منفصلة بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولكنهم يتألفون من مجموعتين بجاويتين متميزتين . الأولى والى وقت قريب كانت طبقة مستعبدة وغير مستقلة ، والثانية هى مجموعة ارستقراطية عربية الجذور كاملة الاستقلال . لذلك عندما تتحدث بعض المصادر عن البنى عامر فإنهم يتحدثون عن كيان لا واقع له ، لان الحديث فى هذه الحالة لابد وأن يعنى واحدة من المجموعتين . فإن تحدثوا عن التقرى فإنهم يقصدون تلك المجموعة السامية – الحامية . وان قصدوا بالحديث عن الحدارب فهم ولاشك يعنون أكثر المجموعات الحامية نقاءاً واقربها الى البجا القدماء . ويقصد بلفظ النابتابى ذلك الشخص ذو الانتماء العربى الذى إمتزجت دماؤه بالقبائل الأخرى مثل الارتيقة والاشراف وعد الشيخ ، أى القبائل التى عرفت بإرستقراطية معهودة

الفصل التاسع

التركية السابقة (١٥٢٠ - ١٨٨٠)

كل رذائل الاستبداد الشرقى – جنكر (عن حاكم سواكن فى عام ١٨٧٥)

فى تقصينا لتاريخ القرون الثلاثة التى مضت بين الاحتلال التركى لسواكن ومصوع وبين احتلال محمد على الكبير للسودان فى عام ١٨٢١ لابد ان نعتمد على المصادر المحلية التى ، كما ذكرنا سابقاً ، شحية وغير دقيقة .

اذا استثنينا تلك المحاولة الوحيدة الفاشلة فى منتصف القرن السادس عشر والتى حاول الاتراك فيها بسط نفوذهم على مرتفعات التقرى ، فإنهم لهم يبذلوا جهداً أضافياً لتوسيع رقعة حكمهم ، بل اكتفوا فقط بالسيطرة على بعض المواقع الاستراتيجية على امتداد الساحل ، تاركين بذلك سكان المناطق الداخلية لشأنها . ذكر ليوافريكاناس ، اكثر كتاب عصره الماماً بافريقيا ، بأن سغنور الكبير كان له خمس ولاة فى افريقيا . وفى عهد بريت أيان عين واحداً من هؤلاء الولاة على سواكن لمواجهة تهديدات التركى الكبير . لهذا دعم ذلك الوالىّ باسطول كبير مكون من خمسة عشرة سفينة مرابطة بالسويس . ويضيف ليوافريكاناس فيقول :

كان ملك النوبة فى حرب مستمرة مع قوم آخرين يقطنون الصحراء وينتشرون فى المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر بالقرب من سواكن . سمى هؤلاء القوم بالبوغا ويعيشون حياة بائسه ويعتمدون فى غذائهم على اللبن ولحوم الجمال وبعض الحيوانات الصحراوية الاخرى التى تقع عليها ايديهم .

لم يكن لوالى سواكن ، رغم لقبه الرفيع واساطيله البحرية ، السيطرة الكاملة على البجا . لذلك ، وكما يقول ليو ، فهم كانوا بعيدين عن سيطرته وبالتالى عن تشريعاته . كان رساموا الخرائط فى تلك الحقبة اكثر ميلاً للنواحى الجمالية اكثر منها بالحقائق الجغرافية ، الا أن خارطة قسطالدى فى عام ١٥٦١ أشارت الى زبد (عيذاب – دمرت عام

١٤٢٦) . وأيضاً سواكن والعلاقى فى صحراء البوغا . كما أشار أيضاً الى مدينة أخرى سماها فوينجى فى مملكة البلو ، يعتقد أنها تقع فى منحنى النيل بالقرب من أبى حمد . غير أن خارطة جانسون التى رسمها عام ١٦٦٠ تعتبر اكثر دقة فيما يخص الحبشة ، التى كان على المام جيد بها وذلك بسبب بعض المصادر البرتغالية ولكن دقته بالمواقع الاخرى لم ترق الى ذلك المستوى . وكسابقه قسطالدى ، فهو أيضاً يوضح زبد ويضع مملكة البلو بالقرب من دنقلا . وتختفى هنا فوينجى لتحل محلها نبته التى تمتد الى الشرق بعيداً عن النيل . يجد وصف ليو دعماً من دون جوان دى كاسترو ذلك النبيل الاسبانى الذى أبحر مع استيفانو دى غاما فى حملته الفاشلة ضد السويس عام ١٥٤٠ . ويلخص مشاهداته عن سواكن فيما يلى :

تعتبر من أغنى مدن الشرق وتقع على ساحل أبيشى . . . فهى تتاجر مع جزر الهند وبالذات مع كامبايا وتناسارين وبيقو وملقا ومع الخليج العربى الى جدة والقاهرة والاسكندرية وتستجلب من أثيوبيا وابيشى كميات كبيرة من الذهب والعاج . ويضيف عن البجا قائلاً :

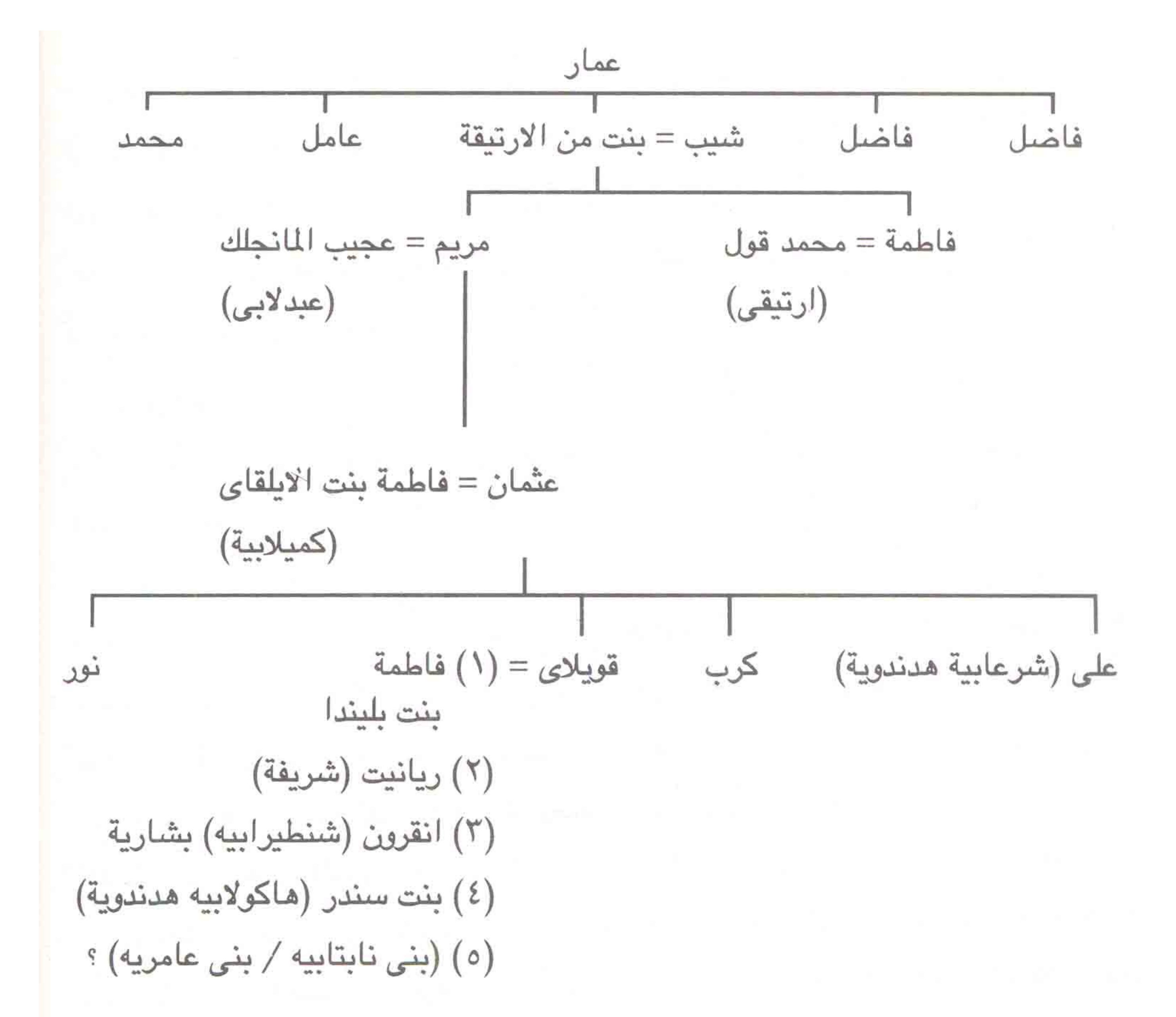
هم فى حرب مستمرة مع جيرانهم ومع الجميع ، فهم ينتمون الى قبائل متعددة لايحكمها ملك أو حاكم كبير ، غير أن فرع كل قبيلة من هذه القبائل يخضع لشيخ فلا توجد فى أرضهم مدن ولايسكنون فى بيوت ثابتة لان من تقاليدهم التجوال والترحال مع قطعانهم .

من هذا نرى أن القرن السادس عشر يشمل وقائعاً اكثر دقة عن البجا بالمقارنة للقرون السابقة فهنا تتكرر الصورة عن البجا وهجومهم على وادى النيل وغاراتهم على قطعان بعضهم البعض . فهم بذلك فى حرب مستمرة من أجل الماء والمرعى كما كانوا يفعلون فى الماضى والحاضر وربما فى المستقبل أيضاً . تعتبر هذه الفترة الزمنية رغم إفتقارها للتوثيق التأريخى هى الفترة التى بدأت تدب فيها روح الوحدة بين القبائل البجاوية بالصورة التى نعرفها الان . كان الأمرأر والبشاريون والهدندوة يمرون بمرحلة الانصهار التى كان عليها ان تصقل بالحرب ليس مع جيرانهم فقط وانما أيضاً مع مملكة الفونج ، على الجنوب الغربى ، التى تسعى لمد نفوذها الى جبال البحر الأحمر .

كانت محاولات سنار لفرض سيطرتها على شرق السودان تشهد نجاحاً جزئياً . ارسلت حملات متعددة ضد البجا لاستغلال مناجم الذهب بالبحر الأحمر . لم يكتب النجاح لهذه الحملات ، كما فشلوا فى تحييد قوة الهدندوة التى بدأت تتعاظم بعد سيطرتهم على الجبال المحيطة بسنكات وأركويت ، وكانوا هم السبب أيضاً فى الماضى فى طرد البلو والسنكاتكناب وغيرهم من الذين يوصفون الان بالبنى عامر .

فشل الفونج أيضاً فى الوصول الى عيتباى بسبب المقاومة الشديدة ضدهم والتى ، كما ذكر سابقاً ، كانت اكثر شراسة وسط القبائل الشمالية بالمقارنة للقبائل الجنوبية . لذلك استطاعوا فى عام ١٦٠٠ من إنشاء إدارة قبلية (البنى عامر) فى الجبال الواقعة جنوب خور بركة ، اضافة لسيطرتهم على خط عطبرة مع إنشاء بعض النقاط فى أسوبرى وقوز رجب . ومن ثم استطاعوا السيطرة على قبائل القاش وسيتيت علاوة على الحلنقة والحمران وبعض القبائل الاخرى . والغريب فى الأمر أن الارستقراطية العربية التى فرضت سلطتها بحد السيف على مجموعة كبيرة من الارقاء البجاويين - الذين يسمون الان بالبنى عامر - تحالفت مع الفونج وطلبت منهم الدعم . لذلك فإن زعيمهم (الذى سمى بالدقلل) منح لقب المانجل وتوج بالطاقية الخاصة لهذا الغرض . وتروى الوقائع العبدلابية بأن سلطنتهم تمكنت من حكم عشر مقاطعة فى الصباح (أى قبائل شرق السودان) وشمل ذلك النابتاب والحلنقة والحمران . بعد ذلك بدأ الضعف ينخر فى عظام السلطنة مما أضعف روابط البنى عامر بسنار .

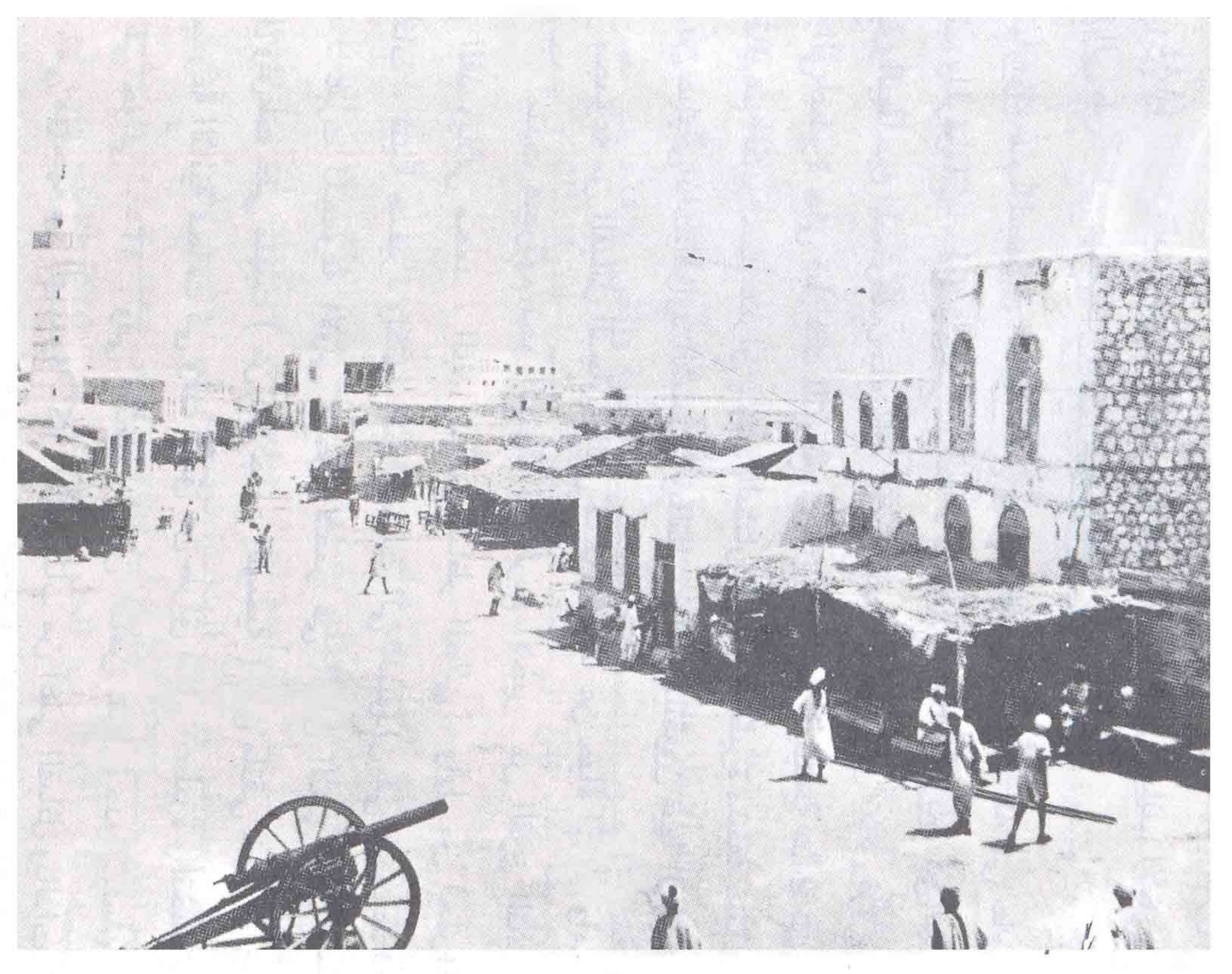
ظلت القبائل البجاوية الشمالية فى مواقعها الجبلية والصحراوية شمال خط عرض ١٩ حتى بداية القرن الثانى عشر . اجبرت هذه الظروف القاسية قبائل المنطقة ان تبحث لنفسها مخرجاً نحو المناطق الاكثر جذبا من ناحية المرعى والمعيشة وكان السبق فى ذلك للامرأر الذين يقطنون المنطقة الخلفية بما يسمى الآن ببورتسودان . اتصفت هذه القبيلة بالفطنة والطموح لذلك دعمت توسعها بالمصاهرة مع قبائل مثل الارتيقة والاشراف الشارين والهدندوة وغيرها من القبائل التى اعترضت سبيلها . ويوضح النموذج التالى تزواج الامرأر مع القبائل الاخرى وماننتج عنه وفقاً لمقالة ساندرز عن الامرأر فى مدونات وسجلات السودان مجلد ٢٨ رقم ٢ .



لايعرف بالتحديد ما إذا كانت اضافة عجيب المانجلك لهذه الشجرة تعتبر من الحقائق التاريخية المتفق عليها ، غير ان هذا الموضوع له مغزى تاريخياً لأن هذا الشخص مات فى كلكول عام ١٦١١ . أيضاً يمكن أفتراض ان البشاريين والهدندوة ظهروا ككيانات قبلية مستقلة فى فترة مبكرة فى منتصف القرن السابع أو قبل ذلك . غير أن ساندرز يفترض أن المانجلك ليس له موقع فى تاريخ الامرأر . ويقول فى ذلك :

قد يبدو الامر برمته على أنه محاولة للقبيلة لربط نفسها بطبقة الفونج الارستقراطية ، لذلك اقحم اسم عجيب فى هذه الرواية اما لشهرته كمانجلك أو فعلا انه قام بزيارة لسواكن وضواحيها وهو فى طريقه الى الحج أو لأسباب أخرى .

لايتطرق مؤرخو العبدلاب الى هذه الرواية ، لكن هنالك اعتقاد جازم بأن عجيب فعلاً



مدينة سواكن

قد زار سواكن حيث مكث هنالك فترة من الزمان . لذلك لايستبعد مطلقاً ارتباط أو زواج عجيب بإحدى فتيات المنطقة ، كما يدعى الأتمن ، أحدى قبائل البحر الأحمر ، بأنتمائهم الى عجيب العبدلابى . فى عام ١٧٢٥ استطاع بعض الاتمن بقيادة زعيمهم محمد أقيم (١٧٠٠ - ١٧٦٠) التوغل غرباً وجنوباً حتى مسمار داخل اراضى البشاريين . لم يكن هذا التوغل سلمياً فى كل الاحيان ولكنه كان اقوى تحت قيادة زعيمهم البارز محمد هساى (توفى ١٨٤٠) الذى تقدم بهم وتركهم حيث هم الان . وفى الجانب الآخر فضل النوراب الهجرة الى طوكر فى منتصف القرن التاسع عشر .

البشاريون هم المجموعة الثانية التى بدأت الهجرة . يقال انه فى عام ١٧٦٠ ابدى الكمالاب والمرقوماب ، أولاد كاهل أيضاً ، تعاضداً مع البشاريين فى نهر عطبرة ضد المسلمية والبطاحين المستوطنين بالبطانة . ومن المحتمل أيضاً أن بعض فروع البشاريين قد وصلوا الى عطبرة حتى قبل ذلك التأريخ ، ولكن هجرتهم الرئيسية بدأت من منطقة أرياب بقيادة قائدهم الكبير حمد عمران . وجد البشاريون حول عطبرة منطقة غنية بالماء والعشب عوضاً عن عيتباى ذات الموارد الشحيحة وبالتالى بدأوا يستقرون فيها الى يومنا هذا .

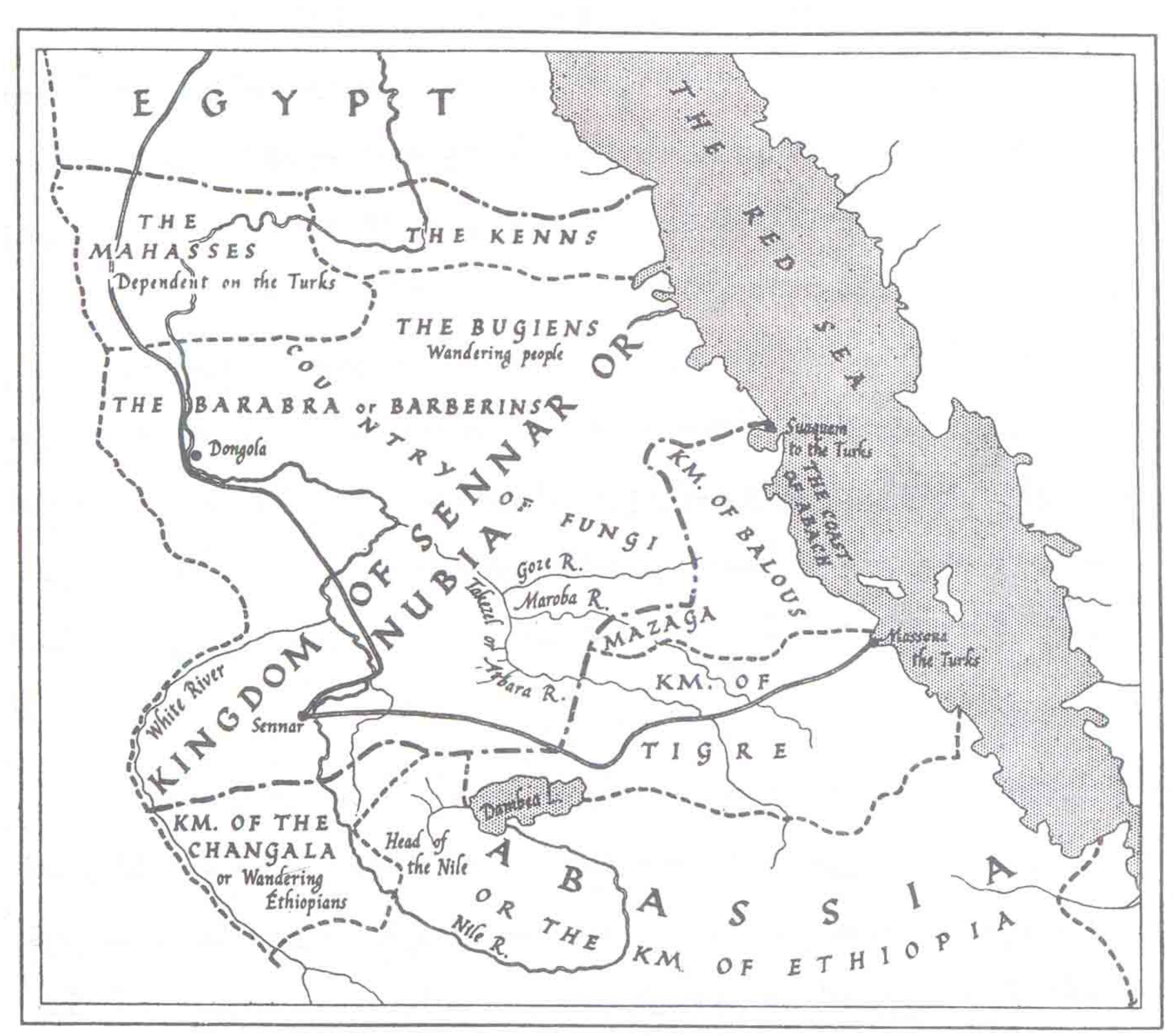
أخر مجموعة من القبائل البجاوية التى هاجرت بحثاً عن حياة افضل وامطار اغزر هى الهدندوة . امتدت هجرتهم نحو الجنوب فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر تحت قائدهم الفذ ويلألى محمد ، الجد المباشر للناظر الحالى . وأول من احس بوطأتهم هم الملهيتكناب ، قبيلة صغيرة ولكنها غنية ووصلت الى السودان فى مجموعتين ولكن بطرق مختلفة . عبرت المجموعة الأولى البحر الأحمر فى القرن الثانى عشر واستقرت على الساحل وتوغلت حتى ملهيت (من هنا جاءت التسمية) على ملتقى خورى ويندى ولانقيب . أما المجموعة الثانية فجاءت فى وقت لاحق عن طريق دنقلا وعطبرة والتحمت مع المجموعة الأولى فى حوالى ١٣٠٠ . وفى منتصف القرن الثامن عشر وجدوا انفسهم ، ومن سوء حظهم ، فى مواجهة مع الهدندوة . كان الملهيتكناب من أغنى القبائل وبالذات بالجمال حتى ان زعيمهم لقب بقمد هسال (أى ذى الرسن الطويل) . انتهى أول صدام لهم مع الهدندوة بطردهم جنوباً نحو أودى ثم الى أم آدام ، فى الحدود الشمالية من دلتا القاش . وهنا وجدوا انفسهم مرة أخرى امام خصم جديد هم الحلنقة .

توفى ويلألى محمد حوالى عام ١٧٨٠ ودفن فى خور لانقيب . لكن الهدندوة واصلوا زحفهم تحت قيادة ابنه محمد حيث تم لهم طرد الحلنقة والملهيتكناب والسيقولاب الى تولوس (كسلا) ، ومع حلول القرن التاسع عشر وصل الهدندوة الى عطبرة بعد أن وطدوا اقدامهم فى القاش وأتخذوا من فيليك عاصمة لهم . فى عام ١٨٦٠ زار ليجان تلك المنطقة ووصفها بأنها قرية صغيرة غير جذابة وتتكون من الخيام البجاوية المتناثرة حول بئر .

ويروى بيركارت ، الذى سافر من شندى الى سواكن قبل عام من معركة وترلو ، بأنه وجد البشاريين والهدندوة حيث هم الآن وابدى انطباعاً سيئاً عن كليهما . ثم اضاف قائلاً عن البشاريين " بأنهم سلالة جميلة القسمات مقدامة فى الحرب وتحمل السلاح بإستمرار وفى حرب مستمرة ، اضافة بأنهم غدارون وقساة وبخلاء ومحبين للإنتقام " . وكان رأيه عن الهدندوة أكثر قسوة اذا قال " لم أر جنساً اقل رحمة للأجنبى من الهدندوة " . ثم زارهم مرة أخرى فى فيليك بالقاش وهو فى طريقه الى سواكن . فى هذه المرة علق على جودة قطعانهم من الماشية والجمال كما سرد قائمة من السلع التى كانت تعرض فى اسواقهم . ضم ذلك الابقار والجمال والسروج والتبغ والحبال والجلود والملح وريش النعام والبروش والقفف والحبوب والصناعات الفخارية المحلية والخرز ، هذه هى نفس السلع المتداولة اليوم مما يدل على أن البجا لم يتغيروا كثيـراً لفترة المائة والخمسين عاماً الاخيرة .

وصل الهدندوة فى تلك الاثناء الى عطبرة شرق قوز رجب ، غير أن البشاريين كانو الى الشرق اكثر مماهم الان وكانوا يغيرون بصورة مستديمة على القاش الا أن الهدندوة كانوا أقوى منهم مما اجبرهم على التراجع نحو الجنوب حتى مرتفعات اريتريا ونحو منطقة الشكرية فى نهر عطبرة . وواصل الهدندوة توسعهم فى اراضى القبائل الاخرى الا أن وجدوا أنفسهم أمام خصم جديد اكثر منهم قوة وهو جيش محمد على ، والى مصر ، الذى أرسل جيوشـــه عام ١٨٢١ نحو الجنوب للقضاء على مملكة الفونج ومن ثم احتلال السودان .

بدأ الاتراك احتلالهم بحملة محمد بيه الدفتردار التأريخية عام ١٨٢٣ انتقاماً لمقتل اسماعيل باشا فى شندى . كان عليهم أن يعملوا الكثير ولكنهم لم يولوا فى بداية حكمهم



جزء من خارطة جون سينيكى ١٧٠٩

اهتماماً يذكر بالمنطقة الشرقية وقبائل التاكا والبحر الأحمر . ابدى محمد على رغبة شديدة فى الاستيلاء على الثروة المعدنية فى المنطقة ، لذلك أرسل فى عام ١٨٣٣ لمنطقة عيتباى مهندساً فرنسياً هو لينان دى بلفوند ليقيم له المناجم القديمة فى المنطقة . وله يرجع الفضل فى السرد الشيق عن المنطقة وبشاريى المنطقة الشمالية الذين كانوا فى منئاً عن يد الادارة المصرية . أثار ذلك التقرير دهشة المصريين كما رواه لهم بلفوند بعد وصوله للقاهرة . وجد بلفوند أيضاً صعوبة فى التوغل حتى جبل إلبا الذى كانت تقطنه جماعة من اللصوص غالبيتهم من حمدأوراب والشنتيراب . انه لم يرو شيئاً عن القبيلة الا وكان مطابقاً للواقع . ايضاً من ملاحظات بلفوند الهامة عن البشاريين هو مستوى التشابه الكبير فى المظاهر الجسمانية بينهم وبين المصريين القدماء كما هو ظاهر فى المومياء القديمة .

لقد ورد وصفه للبجا فى موقع آخر ، غير ان ملاحظاته الجديرة بالذكر هو قوله أن للبجا مقدرة عجيبه للصبر على الجوع ، انهم يمضون أياماً عديدة بكمية ضئيلة من الزاد . ولكن عندما تسمح الظروف فإن شخصاً واحداً منهم يستطيع التهام شاة بأكملها فى وجبة واحدة ثم يظل أياماً عدة بدون غذاء . هذه ميزة لازالت تلازم أحفادهم ولا تتوفر الى فى الاصلة العاصرة .

ويضيف بلفوند عن مقدرتهم الفائقة فى رعاية الجمال وركوبها ، الا انه لم يذكر شيئاً عن السلالتين الجديدتين للجمال اللتين اشتهر بهما البشاريون وهما بانقير وكلايواو . ومن رواياته الطريفة انهم يتركون انثى الحمار اثناء فترة التلقيح فى عزلة حتى يتم تلقيحها بذكر فى الصحراء ، وفى اعتقادهم ان نتاج هذا التوالد يكون اكثر قوة وسرعة .

لم يجلب السودان للادارة المصرية ما كان مرجواً منه من المال والثروة . لذلك أرسل على خورشيد باشا حملة عام ١٨٣٢ لجمع الضرائب فى منطقة التاكا . جلبت هذه البعثة معها كميات كبيرة من الماشية وكميات اقل من الذهب . لم يكن ذلك بدون مقابل اذ أن حملته وجدت مقاومة شرسة من الهدندوة فى غابات القاش مما اضطره للاستقالة من منصبه . وبعد ثمانية اعوام جهز احمد باشا ابواضان حملة كبيرة أخرى هدفها الرئيسى هو نهب كل ماهو مستطاع . رغم أن هذه الحملة لم تواجه مواجهة كبيرة الا أنها لم

تستطع اخضاع القاش ، كما لم تستطع جمع كميات كبيرة من الضرائب . ولكن الانجاز الكبير لهذه الحملة هو تأسيسها لمدينة كسلا كنقطة عسكرية يتم من خلالها الاشراف على البجا الجنوبيين . ويجدر بالذكر أنه اثناء تلك الفترة تم اعتقال زعيم الهدندوة محمد دين بصورة ماكره وإرساله الى السجن فى الخرطوم حيث مات هناك . وصف وورن محمد دين بأنه " شخص متوسط القامة يميل الى السمرة أو السواد كبقية ابناء جلدته . كان يلبس اللباس العربى وسروالاً انيقا احمر اللون ". موت هذا الزعيم ورحيله عن المسرح لم يحيد القبيلة ولم يقض على جذور المعارضة التى تواصلت حتى أن تولى السلطة حاكم عام جديد هو أحمد باشا المنيكلى الذى لقب بالجزار لقضائه على المقاومة بأعلى درجة من القسوة والفظاعة . ووصف كمينغ ماحدث قائلاً :

لقد ذبح عشرات من البجاويين ومثل بهم شر تمثيل ، ودفنت ابارهم وبترت ارجل قطعانهم . كان الباشا يتلهى ويتلذذ بقتل الرجال حيث اعترف واحد من صنباطه بأنهم كانوا يختبرون حدة السيف وجودته بمقدرته على قطع الاسرى الى نصفين بضربة واحدة وحتى نساء البجا العفيفات لم يفلتن من يد الباشبوزق . اخد معه الباشا عند عودته للخرطوم اربعين زعيماً من زعماء الهدندوة حيث تم شنقهم فى ميدان عام بسوق الخرطوم . أدى ذلك الى كسر روح المقاومة لدى القبيلة لذلك لم يواجه الحكم التركى للأربعين سنة التالية أى مقاومة تذكر .

اقتنع المصريون منذ ذلك الحين الى ترك هذه المنقطة وشأنها . لم يوقف ذلك الباشبوزق وجامعى الضرائب من ان ينهبوا المنطقة باسم الدولة . تواصلت هذه السياسة حتى أثناء فترة حكم مونزقار القصيرة التى امتدت من ١٨٧٣ الى ١٨٧٥ . لم يسلم من تلك المعاملة غير القبائل الساحلية التى لم تكن على اتصال بسواكن ، الا أن الادارة المصرية انشأت لها نقاطاً فى طوكر وأركويت وحتى فى بعض المناطق الداخلية النائية مثل تميرين . ومنذ ذلك الحين اصبحت قبائل البشاريين فى عطبرة وعيتباى مجموعتين قبليتين منفصلتين . اجبرت المجموعة الاولى لدفع الضرائب بسبب وجودها على النهر بين بربر وكسلا ، فى حين أن المجموعة الثانية لم تخضع لاى سلطة ولم تدفع الضرائب المقررة رغم الحملات التى كانت ترسلها بربر من وقت لآخر .

الضريبة التى حددت للأمرأر كانت تقدر ما بين ٥٠٠ - ٧٠٠ جنيهاً مصريا ، الا انها لم تجمع فى كل الاحيان وإن جمعت فكانت أقل مما هو مقرر . لم يسمع عن الامرأر منذ ذلك الحين الى قيام الثورة المهدية . والامرأر مثلهم مثل الهدندوة كانوا يشرفون على ترحيل التجارة عبر اراضيهم ، وكان ناظرهم يتلقى ، من مقر اقامته بأرياب ، رسوماً مالية عن التجارة المارة بين بربر وسواكن . وكانت سواكن فى تلك الاثناء تشتهر بتجارة الرقيق والخيول والحبوب والسمن وريش النعام والجلود وبعض الذهب . وقدر بيركارت ان ما بين اثنين وثلاثه الف من العبيد كانوا يغادرون ميناء سواكن سنوياً . كما ذكر أيضاً بأن الضريبة المقررة للخيول كانت أعلى من تلك التى كانت تدفع للرقيق ، وان كميات كبيرة من فائض الذرة من القاش كانت تصدر عبر سواكن . ويضيف بيركارت قائلاً بأنه لايمكن لاى سفينة ان تغادر سواكن الى الجزيرة العربية الا بعد أن تملأ بالذرة من التاكا .

بعد انشاء كسلا انشأت محطات أخرى على الجنوب فى أراضى البنى عامر وفى منطقة بقوس الجديدة التى احتلت حديثاً والتى تمتد حدودها من نهر سيتيت الى كرن . كما أنشأت نقاط إضافية فى قوز رجب . وبالقرب من أروما بالقاش . ويمكن الحصول على تفاصيل هذه الفترة عن طريق الرحالة الذين جابوا المنطقة والذين أجمع جميعهم عن عدم رضا المواطنين للحكم المصرى . ولكن البجا صبروا عليه واحتملوه أما بسبب تأثرهم الجزئى به أو خوفاً من مجابهتهم للاسلحة التركية المتفوقة .

كانت التاكا تعتبر من المحافظات الفقيرة إذ أنها كانت تعانى من عجز كبير بين الدخل والانفاق . فمثلاً فى عام ١٨٧١ وصلت المبالغ المحصلة من الضرائب والمتأخرات حوالى ٤٠٫٠٠٠ جنيه مقابل ٣٦٫٠٠٠ جنيه هى عبارة عن ماصرف على موظفى الحكومة والقوات المسلحة . وفى واقع الامر ان غالبية الانفاق كان على النواحى الدفاعية . ويظهر هذا الوضع جلياً فى ميزانية مونزقار عام ١٨٧٤ التى وصل فيها الانفاق العسكرى ٧٦٫٠٠٠ جنيه من مجموع الميزانية التى بلغت ٩١٫٠٠٠ . هذا الوضع كان سبباً فى نشوب تمرد عام ١٨٦٥ وكان سببه تأخر الرواتب وفساد الضباط . كانت القبائل البجاوية فى غاية السرور مما آلت اليه الأوضاع داخل الجيش وبذلك وجدوا الفرصة سانحه فى عدم دفع الضرائب .

البنو عامر هى القبيلة الوحيدة ، بعد الحلنقة ، التى استبشرت بمجئ المصريين للسودان ، غير أنها اسفت لموقفها هذا فيما بعد . ويرجع سبب فرحتهم انهم وجدوا أنفسهم بين عدوين لدودين هما الاحباش على الجنوب والهدندوة على الشمال الغربى . وهذا الوضع الذى لايحسدون عليه جعلهم يرحبون بالمصريين والاتراك عام ١٨٤٨ ليكونوا لهم عوناً ضد الهدندوة . وساءت الامور لدرجة أن طبقة النابتاب الارستقراطية لم تجد العون الكافى للسيطرة على الامور داخل المجموعة الادارية التابعة لها . ادى ذلك الى صعوبة فى جمع الضرائب التى لم تدفع الا بالقوة . أدى ذلك أيضاً ان يستنجد الزعيم دقلل حامد موسى بمدير التاكا لقمع التمرد داخل القبيلة ولصد العدوان الخارجى عنها . اذا كان جمع الضرائب بهذه الصعوبة بين البنى عامر الموالين للحكومة فلاشك أنه كان مستحيلاً بين القبائل الأخرى . وحتى ذلك الجزء اليسير الذى يتم جمعه فانه يقسم بين الزعماء والجنود والموظفين وحتى الحاكم نفسه ، قبل ان يصل شئ منه للسطات الحقيقية .

تبوأ اسماعيل باشا ، حفيد محمد على الاكبر ، مقاليد خديوى مصر عام ١٨٦٣ خلفا لعمه سعيد باشا . وعلى التو تبنى سياسة توسعية وتنموية طموحة ولكنها غير عملية . لذلك انتزع سواكن من الاتراك وعين عليها المهندس الحربى احمد ممتاز الذى انتهج ايضاً سياسة غير واقعية فى العمل والتنفيذ . رغم ذلك فإنه كان يتمتع بالثقة الكاملة من الخديوى ، لذلك رقى الى حاكم عام لشرق السودان اضافة لمنطقة الجزيرة . تلخصت سياسته الجديدة فى بناء خط حديدى من قضير الى سواكن وزراعة القطن فى التاكا وكسلا (إنتاج المنطقة الاخيرة كان يشحن الى مصر عن طريق قوز رجب) اضافة لتحسين السكن الشعبى لسواكن ومده بشبكة من المياه العذبة من تمانييب . شملت أهتماماته الأخرى زراعة قصب السكر والزهور والعنب وحتى الياسمين ، فى ارض ابعد ما تكون عن مثل هذه الزهور . لقد فقد صداقة الجميع وعلى الخصوص جعفر باشا مظهر ، الحاكم العام ، الذى كان ينظر الى برنامجه التنموية الاسرافية بعدم الرضا والاستحسان مما تسبب فى استدعائه .

من سياساته الغريبة انه فرض على القبائل المحلية المستفيدة من برامجه توفير عمالة مجانية لعماله وترحيل امتعتهم مما كان له أثر فى الركود التجارى والاقتصادى . رغم كل

ذلك أن جنكر لاحظ ، أثناء مرورة بسواكن عام ١٨٧٥ ، الرخاء الذى تعيشه هذه المدينة حيث وصل فيها الدخل السنوى من عائدات التصدير الى ٦٠٫٠٠٠ جنيه .

علق الكابتن روكبى ، أثناء زيارته لعطبرة عام ١٨٧١ ، على الجهد الهائل الذين بذله ممتاز باشا فى تنفيذ سياسته فى شرق السودان . ومن ملاحظاته " أن السلطات فرضت زراعة القطن على المواطنين فرضاً فى نفس الوقت الذى منعتهم فيه زراعة الذرة " . لم يدرك ممتاز انه لايستطيع فرض زراعة القطن على البجا ، لذلك كتب الفشل لمجهوداته فى كل مكان ، عدا منطقة طوكر التى استعان فيها بالجيش والسجناء .

خلف ويرنر مونزقار ، السويسرى ، أحمد ممتاز كحاكم لشرق السودان . كان هذا شبيهاً بسلفه الا انه كان أقل منه تطلعاً للسياسات الطموحة . لقد افصح لخديوى مصر عن رأيه فى تطوير ميناء عقيق بدلاً عن سواكن وربطها بكسلا عن طريق خط حديدى يمر بمامان ، هذا رغم الرقعة الزراعية المحدودة هذا العام (١٨٧٣) فى طوكر . من رأيه أن ذلك سوف يجعل منها مركزاً تجارياً وسياسياً لجميع المنطقة الواقعة بين عطبرة والبحر الأحمر . تجاهل اسماعيل رأى مونزقار كما كان يفعل مع ممتاز ، وبدلا عن ذلك أرسل قوات الى طوكر وهجرت هذه القوات المدينة لان الاقامة بها لم تعجبهم . لذلك كان لابد من استدعاء قوات سودانية من مصوع لتشرف على حمايتها ، ثم استعان مرة أخرى بالسجناء المكبلين بالاغلال لتطوير زراعة القطن بها . بعد ذلك بدأ الخديوى يولى اهتمامه لقضايا أكثر أهمية له . المشاريع الناجحة التى أنشأها وطورها ممتاز باشا ومونزقار هى زراعة القطن فى طوكر والقاش وبناء محلج وغلاية ضخمة بسواكن ومجموعة كبيرة من الماكينات التى دفن نصفها فى الرمال بين طوكر وترنكتات .

ظلت كسلا منذ انشائها عام ١٨٤٠ وحتى عام ١٨٦٠ نقطة عسكرية ، ولكن أهميتها بدأت تتزايد يوماً بعد يوم وبالذات بعد طموحات الخديوى فى الحبشة . احتل مونزقار عام ١٨٧٢ كرن ومنطقة البقوس وكوفئ لذلك بترقيته كحاكم عام . ولكن المصريون لم يستطيعوا التقدم اكثر من ذلك حتى هزموا فى قونديت عام ١٨٧٥ (فى هذه المعركة لقى دقلل البنى عامر حتفه). ثم منيوا بهزيمة اكبر فى قورا فى العام التالى عندما حاولوا استعادة بعض المواقع . وفى نفس الوقت قتل مونزقار على يد الدناكل فى الساحل. وبموته طويت صفحة طموحات اسماعيل فى الحبشة وبالتالى التوسع المصرى فى أفريقيا .

الفصل العاشر

المهدية وإعادة الاحتلال (١٨٨١-١٩٠٠)

تخضبت رمال الصحراء باللون الأحمر
بسـبب دم المربـع الـذى دمـر
وثـب قـارلنـغ ومـات الكولونيـل
وعميت عيون الجيش بالغبار والدخـان

سيرهزى نيوبولت

أعلن محمد أحمد المهدى دعوته المقدسة لأول مرة فى مايو عام ١٨٨١ . وبعد عامين فقط استطاع أن يحقق أكبر انجازاته وهى احتلال الابيض . ظل شرق السودان خلال هذين العامين هادئاً وخالياً من أى نوع من الاضطرابات . وظل البجا ، كما كانوا فى الماضى ، منعزلين وبعيدين عن أى عصبية دينية وما كان لهم أن يثوروا لولا أن ظهرت فى المسرح شخصية فذة مقتدرة أفرزتها الممارسات الاستغلالية للسلطات المصرية .

الهدندوة بصفة رئيسية ، هم الذين يقع عليهم العبء فى ترحيل البضائع الحكومية والتجارية من بربر وكسلا من جهة وسواكن من جهة أخرى . كانوا يقومون بترحيل وتخزين المعدات المرسلة الى هكس باشا عام ١٨٨٣ عبر طريق سواكن - بربر بواقع ٧ دولارات لحمولة الجمل الواحد . أوصل الهدندوة المعدات الى المكان المتفق عليه ودفعت الحكومة المبلغ بكامله ، غير أن الهدندوة لم يدفع لهم غير دولار واحد لكل جمل عكس ما كان متفق عليه . كتب بهذا الخصوص غردون الى إفيلين بارينغ عام ١٨٨٤ " ربما اندلعت ثورة البجا بسبب جشع ولصوصية رشيد باشا وابراهيم بيه " .

ظهر عثمان دقنة فى ذلك الوقت الذى شعرت فيها القبيلة بطعنة فى عزتها . ومما عزز موقفه أنه جاء يحمل رسالة من المهدى يدعو فيها للانتفاضة ضد الأتراك ووجدت دعوته هذه اذنا صاغية . ولد عدم الايفاء بالعهد والمعاملة الغير كريمة من الاتراك شعوراً عارما بالسخط وعدم الرضا وسط البجا . وما كان لدعوة المهدى ان تجد قبولا فى شرق السودان

لولا ظهور مثل هذه الفرصة ، لان البجا ، بطبيعة الحال ، اقل تذمتاً واكثر ميلا للنهب والسلب وحتى عثمان دقنه نفسه لم يتمتع بروح القيادة . كان عثمان دقنة ينتمى الى اسرة كردية هاجرت الى السودان من ديار بكر واستقرت فى سواكن لفترة طويلة حيث تزوج والده من البشاراياب (هدندوة) . فشل عثمان دقنة كتاجر ومتعهد للرقيق وكبائع للماء . استقر به المقام فى السنوات الأولى للمهدية ببربر لأن اهله فى سواكن ضاقوا به ذرعاً . التقى عثمان دقنة بالمهدى عام ١٨٨٣ مباشرة بعد سقوط الابيض . وبعد شهر من ذلك اللقاء عاد الى شرق السودان بلقب امير وبتكليف من المهدى لاثارة القبائل ضد الاتراك .

اصبح عثمان دقنة منذ ذلك الحين وللسنين التالية من أذكى أمراء المهدية رغم انه لم يحظ بالموقع الذى يليق به . لم يكن عثمان دقنة محبوبا وسط أهله وكان يفتقد الى الصفات القيادية التى تتطلع لها القبائل البجاوية المحاربة علاوة لإفتقاده الى الكرم والشجاعة ودماثة الاخلاق وروح الفكاهة ، حتى وان كان ذلك بمفهوم ، وعلى العكس تماماً فكان يتصف بالانانية والفظاعة ولم يشارك بصورة نشطة فى أى موقعة بعد أول مواجهة مباشرة له مع العدو فى سنكات . بل كان يتمتع بملكة غريبة يستطيع معها الانسحاب من المعركة فى الوقت المناسب . وشهرته فى الخيانة وسوء المعاملة لازالت عالقة بالأذهان . ووصفه وايلد فقال " كان سكوتا ونكد المزاج" . رغم كل ذلك فهو يتمتع بموهبة قيادية لايمكن تفسيرها اضافة لمقدرته الفائقة فى الخداع والاقناع . لعل هذه الصفات ، علاوة على الحصافة والاصرار الشديد لتحقيق الهدف ، ساعدته فى تكوين جيش قوى ، كان الوحيد الذى استطاع ان يصمد بضراوة شديدة ضد جيوش اكفأ منه عدة وعتاداً . كان على علم تام بعدم شعبيته ، ولذلك يقول فى بعض المناسبات " انهم يتبعونى لانى املأ بطونهم ، هم ليسوا قوم عقيدة ولكنهم قوم معاش " . والحق يقال انه كان اكثر امراء المهدية اهتماماً بقضايا الجيش وتموينه . فمثلاً نرى أن بيت المال فى عفافيت (طوكر) كان يحتوى على ١٣٢ عبدا و ١٢٫٥٨٥ رأس من* الماشية والجمال و ١٫٠٠٠ طن من الحبوب و ٨٥٫٦١٧ دولاراً كلها كانت تحت تصرف قواته . جمعت هذه الكميات فى فترة الثلاثة عشر شهر التى امتدت من مايو ١٨٨٩ الى مايو ١٨٩٠ والتى كان عثمان دقنه فيها فى ادنى مستوى عسكرى له .

هذه هى شخصية عثمان دقنة كان قصير القامة ، متواضع المكانة انعزالياً وغير مقدام . ظهرت هذه الشخصية على المسرح السياسى فى البحر الأحمر فى نهاية يوليو ١٨٨٣ حاملة لواء الثورة ضد الحكومة . ومما زاد من فرص نجاحه عملية الخداع والغش اللذان عومل بهما الهدندوة اثناء ترحيل معدات هكس باشا ، اضافة للتأييد الذى وجده كممثل للمهدى من الشيخ طه مجذوب الذى كان يمثل رمزاً دينيا هاماً فى المنطقة . رغم ذلك لم يستطع ، فى بداية امره ، من تجنيد اكثر من ١٫٥٠٠ شخص استطاع ان يهاجم بهم حامية الحكومة بسنكات . استطاع توفيق بيه ، قائد الحامية الذى جرح فى المعركة ، ان يصد الهجوم ويأسر غالبية المهاجمين . بهذا اعتبر توفيق بيه القائد المصرى الوحيد الذى ابدى شجاعة فائقة فى مواصلة الهجوم على قوات عثمان دقنة فى قباب ، ولو وجد دعماً كافياً من مرءوسيه لكان بإمكانه القضاء النهائى على هذه الثورة .

ترك عثمان دقنة وحيداً وفر من حوله مؤيدوه بعد هزيمته فى معركتين متتاليتين ولكنه استطاع ان يستعيد قواه بسبب فشل وعدم مقدرة اعدائه . لم تلتفت السلطات المصرية بسواكن للنداءات الخاصة بتقوية الجيش ، بل على العكس تماماً حولت كل الامكانات والجنود والمؤن لدعم حملة صغيرة ليس لها وزن عسكرى وبالتالى لم يتلق توفيق بيه التشجيع والدعم اللازمين ، ولم ترسل له غير قوة صغيرة تحركت من كسلا الى سواكن ولكن الكميلاب قضوا عليها فى خور بركة . ثم ارسلت فى نوفمبر ١٨٨٣ قوة أخرى لنجدة طوكر ولكن هى الاخرى تم القضاء عليها بواسطة مجموعة صغيرة من البجاويين المسلحين تسلحياً بسيطاً . حدث ذلك قبل يوم واحد فقط من هزيمة هكس الشنيعة فى كردفان . تسبب هذا الوضع فى استدعاء قوة من الجنود السودانيين المرابطين بمصوع غير انها لم تدعم الدعم اللازم ولم تزود بكميات كافية من الماء مما قاد الى تدميرها تدميراً كاملاً . ما كان للمصريين بعد هذه الهزائم المتتالية الا أن يحتموا خلف حصونهم بسواكن وفى الجانب الآخر استمد عثمان دقنة قوة جديدة وتقاطر عليه المؤيدون بالذات من الهدندوة الذين انضموا لجيشه ، بل ووصل بهم الحماس درجة اغلقوا معه طريق الامداد من سواكن الى بربر . كان هذا سبباً رئيسياً ومباشراً فى التعجيل بنهاية غردون فى الخرطوم وما تبقى معه من القوات المصرية بالسودان .

وصل الجنرال غردون الى الخرطوم فى فبراير عام ١٨٨٤ بتعليمات لاخلاء القوات المصرية . وفى نفس الوقت انزعجت الحكومة المصرية لهزيمة قواتها فى التيب لذلك أرسلوا دعماً عسكرياً لحماية سواكن (كانت الحكومة البريطانية تعارض إرسال تلك القوات بحجة أنها لم تتلق تدريباً كافياً) . وتتالت الضربات على المصريين اذ طوق حصار على طوكر وسواكن وكادت ان تنفذ مؤن توفيق وجنوده بسنكات . استدعى الامر فى هذ المرحلة ان يتحرك (قبل ان يقيم الموقف العسكرى تقييما صحيحاً) الجنرال بيكر قائد قوات الدعم المصرى الى طوكر عن طريق ترنكتات لفك الحصار المضروب على سنكات . منيت قوات بيكر فى موقعة التيب السابقة بخسارة فادحة حيث ابيد جميع جيشه المؤلف من ٣٥٠٠ رجل على يد الجيش البجاوى الذى لم يتعدى تعداده ١٢٠٠ رجلاً . كانت حصيلة المعركة ان الجنرال بيكر فقد ٢٥٠٠ من رجاله بين قتيل وجريح و ٣٠٠٠ بندقية تركها رجاله فى حالة الفزع الذى حل بهم اثناء فرارهم من المعركة . كان البجا يتسلحون بأسلحة تقليدية كالسيوف والدروع والحراب ، والبعض منهم لم يملك حتى واحدة من تلك ويروى بأنهم استعملوا بجدارة فائقة العصى التى انهالوا بها على أرجل خيول الجيش المصرى .

سقطت سنكات بعد أيام قلائل ، وانسحب توفيق بيه مع بقايا جيشه الذى نفذت مؤنه ولقى حتفه ببسالة بالقرب من الساحل . وقال عنه عثمان دقنة (الذى لم يعرف عنه تمجيد اعدائه) فى رسالة له للمهدى " انه اقدر اشرار علاء الدين واكثرهم شجاعة" .

ولد سقوط سنكات وهزيمة بيكر الشنيعة فى التيب شعوراً بالسخط الشعبى العارم فى انجلترا ، وفى السابق ابدت حكومة الاحرار تنصلاً كاملا عما يجرى فى السودان وفتوراً بما سمى بحملة غردون السلمية للخرطوم . تحركت الحكومة هذه المرة لتنحاز للشعور القومى العام واتخذت بعض الاجراءات العسكرية التأديبية ضد شرق السودان . بدأت بسرعة فى ارسال حملة غير واضحة الاهداف مما تسبب فى القضاء عليها تماماً . شعرت الحكومة البريطانية مرة أخرى بطعنة فى شرفها وفى محاولة لتدارك الموقف ارسلت فى مارس الجنرال غراهام الى سواكن على رأس جيش مكون من ٤٠٠٠ جندى بريطانى .

حاول غراهام انْ ينقذ طوكر ولكنه علم عند وصوله الى ترنكتات ان جنود الحامية هنالك استسلموا . نصح كل من غردون وبيرنغ بعدم اتخاذ اجراءات أخرى ، ولكن الحكومة التى

كانت تخشى من سخط الناخبين أمرت غراهام التقدم بجيشه . وهكذا كتب لرمال التيب ان تستحضر صدى البنادق والمدافع مرة أخرى ، ولكن هذه المرة بنتائج مغايرة . قتل من البجا ١٫٥٠٠ محارباً مما يدل على كفاءة الاسلحة الحديثة عندما تكون فى أيدى جنود منضبطين يجيدون استعمالها . رغم هذه الخسائر الفادحة الا ان البجا لم يستسلموا بسهولة للقوات الغازية . نقل رويل وصفاً عن المعركة على لسان جندى بريطانى فى قوات ستيوارت « ان المقاومة الحقيقية كانت من البجاويين المسلحين بالرماح حيث كانوا يوجهون رماحهم بدقة متناهية وفى الوقت المناسب نحو الخيول مما يقود الى تعطيلها أو قتلها . اضافة انهم كانوا يستعملون عصى معقوفة من السنط يصيبون بها ركبة الخيل مما يقود الى سقوطها وشل حركتها تماماً » .

لم يتبق لغراهام الكثير بعد ذلك لهذا قرر العودة الى سواكن . اثناء انسحابه قرر ان يمشط المنطقة حول تأماى (ثمانية كليومترات للجنوب الغربى لسواكن) دون ان يتخذ الحذر اللازم . وأثناء مرورهم بتلك المنطقة باغتهم البجاويون ، من خلال الشجيرات التى تغطى تلك المنطقة ، وقضوا على جزء من جيشه فى هجمة بطولية فذة بالسيوف ولم يسترجع غراهام موقفه الا بعد حرب كلتفه الكثير . الهمت هذه الشجاعة نفراً من الشعراء البريطانيين امثال نيولولت وكبلنغ لينظموا شعراً يشيدون فيه بشجاعة المحارب البجاوى .

استدعيت قوات غراهام فى مايو ١٨٨٣ واستعادت الوزارة البريطانية شيئاً من توازنها بعد تلك الربكة الطارئة التى المت بها . ثم جاءت الكلمة الاخيرة من عثمان دقنة الذى قال فى خطاب له للمهدى " إن الانجليز لم يمكثوا طويلاً فى بلادنا لان الله زرع فى قلوبهم الرعب والخوف" . إنسحبت هذه الحملة قبل ان تحقق أهدافها وتمثل فشلها الكبير فى عدم قدرتها فى القضاء على عثمان دقنة ، وحتى مبادرات غردون السلمية فى الخرطوم لم يكتب لها النجاح بسبب الاحداث الدامية فى ساحل البحر الأحمر . ولعل النجاح الوحيد المفترض أن تحققه حملة غراهام هو امكانية فتح طريق بربر - سواكن . غير أن هذا المشروع قوبل ، وبسرعة ، برفض شديد والسبب الوحيد وراء ذلك ان الحكومة لم تكن جادة فى سياساتها فى المنطقة وما تتخذه من سياسات أو مواقف لم يكن الا محاولة منها لتفادى النقد الشديد لسياساتها فى مجلس العموم ولم يكن قتلى المعارك بين البريطانيين

(٧٠٠) والبجاويين (٥٠٠٠) الا ثمنا زهيداً لبقاء قلادستون وحكومته فى السلطة . والجنود الذين حاربوا هذه المعارك بلا هدف مقنع وجدوا ما يعجبهم فى شجاعة واقدام اعدائهم البجاويين اكثر من حكوماتهم ، البريطانية والمصرية ، التى ارسلتهم ليحاربوا من أجلها .

اتصفت الحملات البريطانية الثلاثة التى ارسلت الى السودان ، كما يقول كوسون عام ١٨٨٦ ، بكثير من التشابه والتماثل ، فجميعها ارسلت فى وقت متأخر لتفادى السخط الشعبى . ولم يتعد دورها الا الإستعراض السياسى لضمان بقاء الحكومة فى السلطة .

ثم توالت الكوارث ، حيث ان الحكومة التى تحركت بسرعة غير معهودة لتثأر لبيكر وتوفيق بيه لم يشغل بالها مصير مبعوثها فى الخرطوم . يرجع ذلك فى أن المستر قلادسون لم يكن فى مقدوره تصور خطورة الموقف . لذلك عندما ارسل حملة الانقاذ الى الخرطوم جاءت متأخرة بحيث انها لم تستطع انقاذ حياة غردون الذى لاقى حتفه على عتبة سلم القصر فى يناير عام ١٨٨٥ . والحكومة البريطانية التى أهينت فى كرامتها لابد وان تتحرك بسرعة ولم تفكر فى حل اخر غير تكرار حملة البحر الأحمر فى عام ١٨٨٤ . عليه أرسل غراهام مرة أخرى الى سواكن وابرم اتفاق مع شركة لوكاس و ايرد لبناء خط حديدى بين سواكن وبربر . لقى هذا الخط بعض الصعوبات ولكن تمكن مده حتى أوتاو ، على بعد ١٨ ميلا من الساحل ثم توقف العمل فيه فى مايو ، أى بعد شهرين ، حيث بلغت تكلفته ٨٥٠,٠٠٠ جنيهاً . خاضت القوات البريطانية فى تلك الاثناء معركتين فى هاشين وتوفريك (تعرف أيضاً بزريبة ماكنيل) وانسحبت بعد ذلك من كلتيهما . فى المعركة الاخيرة كانت كتيبة من القوات البريطانية والهندية تقوم ببناء سور من الشوك حول معسكرها واذا بها تفاجأ بهجمة شرسة من البجاويين . لم تدم المعركة اكثر من ٢٠ دقيقة ولكنها خلفت وراءها ١٥٠٠ قتيلاً من البجاويين مقابل ٣٠٠ من القوات البريطانية .

أظهر المحارب البجاوى فى كل هذه المعارك شجاعة وبسالة منقطعة النظير . حتى الجريح المحتضر منهم كان مصدر خطورة لمن يقترب منه . كان النساء والأطفال يحاربون جنباً لجنب مع الرجال . وشوهد فى المعركة التى خاضها غراهام اطفال دون الثانية عشر وهم يحاربون بضراوة ويتهاتفون الى خنادق الاعداء حتى يقعوا فيه صرعى واسنانهم مكشرة وايديهم مسمرة على رماحهم . وشوهد فى مشهد آخر طفل بجاوى فى نفس العمر

يقذف الجيش البريطانى بالحجارة غير مبال بوابل الرصاص الموجه اليه . كل ادبيات تلك الفترة ، رغم انتقادها الشديد والقاس لموقف الحكومة البريطانية فيما يخص حملة سواكن وأهدافها الا ان جميعها ابدت ، وبلا استثناء ، اعجاباً شديداً بشجاعة العدو الذى كانوا يحاربونه . كان الانتحاريون البجاويون الذين يخترقون صفوف الجيش البريطانى ليلاً ليسددوا طعنات قاتلة لجنود الحراسة الليلية ثم يواجهون الموت ببسالة فى شتئ المعارك ، كانوا بمثابة أعجاب وتقدير للجندى البريطانى . وهاهو رديارد كبلنغ شاعر الامبراطورية البريطانية فى مقاطع من قصيدته المشهورة " فيزى ويزى" التى يمجد فيها المحارب البجاوى :

أنه زهرة الديزى ، إنه جوهرة ، انه حمل وديع ،

أنه قطعة من المطاط المهووس بالانطلاق ،

انه الشئ الوحيد الذى لايعطى مثقال ذرة من الاهتمام ،

لفرقة المشاة البريطانيين .

كان هنالك تبديد للموارد المادية والبشرية بلا هدف . كما علق تشرشل فى كتابه " حرب النهر" أن التهمة الموجهة ضد قلادستون وحكومته قاتمة ودامغة وكان أجدى للمؤرخين ان يدعموا هذه الاتهامات بدل ان يرهقوا انفسهم فى أيجاد المبررات لها .

رغم حصيلة المعارك التى بلغت ١٠٫٠٠٠ قتيلاً فإن عثمان دقنة لم ينته بعد ولم يزل يثير القلاقل بين الحين والآخر فى المناطق المحيطة بسواكن . سقطت كسلا بعد حصار طويل فى يوليو ١٨٨٥ ، وفشل رأس ألولا فى نجدتها وتحقيق نصر طالما ترقبه ضد قوات الدراويش فى كوفيت .

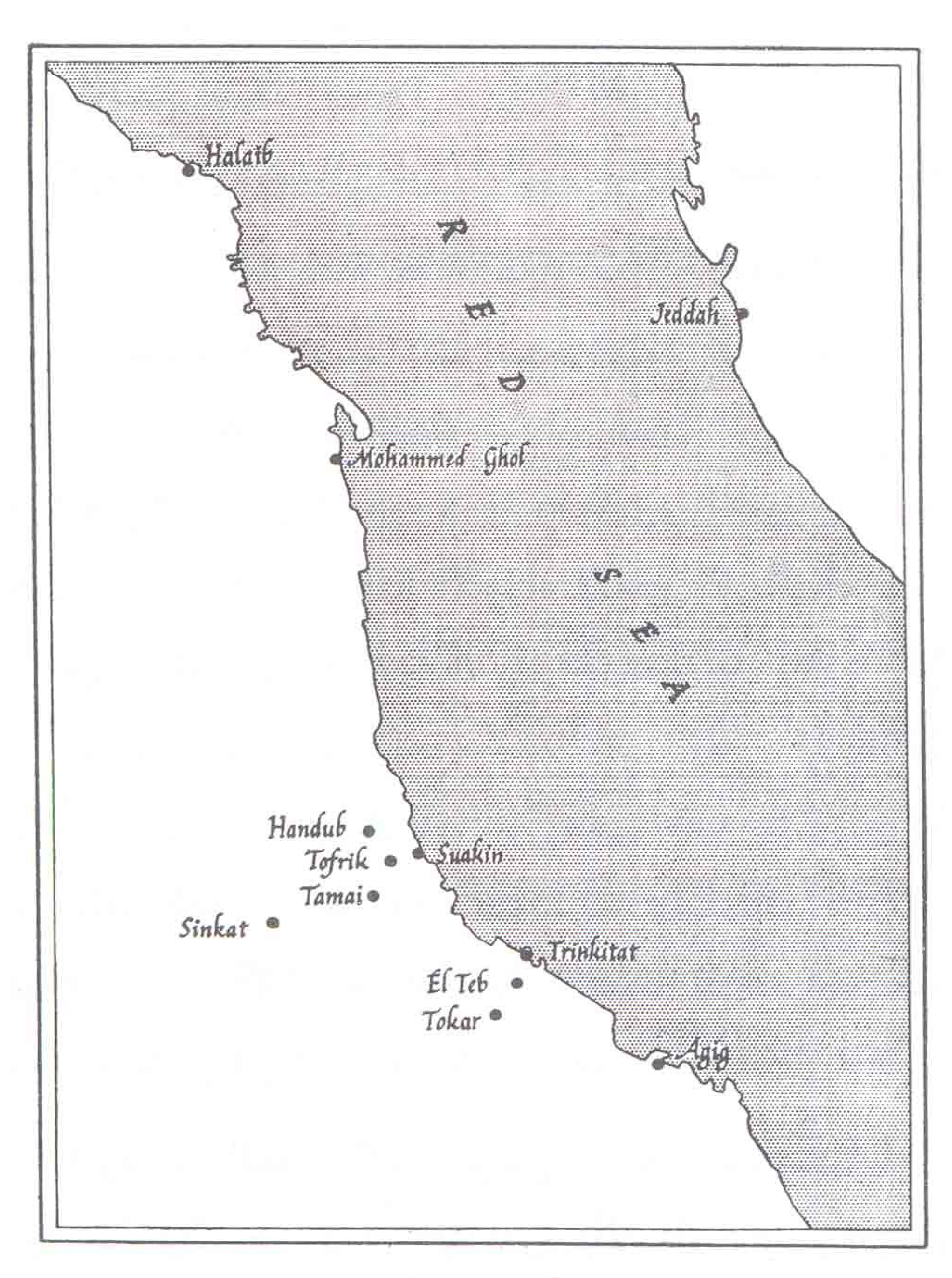
وفى الجانب الآخر فإن الخسائر التى منيت بها القبائل المحاربة بجانب عثمان دقنة كانت فادحة أيضاً لدرجة انها كبحت من حماسهم للانخراط من جديد فى جيشه . وكان ذلك سببا مباشراً فى اضعاف قواه القتالية فى الميدان . كانت غالبية قوات عثمان دقنة من الهدندوة وبعض بشاريى عطبرة ومجموعات متعددة من الأتمن والأمرأر وبعض قبائل طوكر مثل الحسناب والاشراف والكميلاب . من الان فصاعداً هجره كثير من جنوده غير قله

متعصبة له . لهذا فإن عثمان دقنة اصبح يعتمد اكثر فأكثر على البقارة والقبائل النهرية الأخرى التى مارست عنفا غير محدود فى المنطقة مما اكسبها كراهية القبائل البجاوية .

وكان الامرأر هم أول من تأثر بذلك العنف ، وفى فترة المهدية وجدت القبيلة نفسها ، بحكم موقعها الجغرافى ، بين نارين حاولت جاهدة أن توفق بينهما ولكن دون جدوى . لم يعجب هذا الموقف عثمان دقنة حيث قام بإعدام ناظرهم الشيخ حامد محمود عام ١٨٨٦ ومعه شيخ النوراب . واخطأ عثمان دقنة التقدير فإنه أن قصد بهذه الجريمة تخويف القبيلة فانه فعلته هذه لم تزدهم الابعداً ونفوراً . وبدأ الامرأر شن هجمات ناجحة ضد مواقع عثمان دقنة استطاعوا فيها الاستيلاء على تأماى واستولوا فيها على سبعة عشر مدفع .

وفى نفس الاثناء بدأ عثمان دقنة يفقد دعم ومساندة الجميلاب (هدندوة) الذين كانوا يمثلون قوة قتالية لا يستهان بها ، ثم الاشراف فى وقت لاحق . وحتى تلك القبائل التى لم تظهر أى عداء سافر له رفضت مشاركته فى أى حرب فى المستقبل . كل ذلك اضعف جيشه لدرجة ان الخليفة اضطر ان يرسل له الدنقلاوى الامير ابوقرجة على رأس جيش كبير من البقارة لنصرته . ولم يزد هذا الاجراء الامور الا سوءاً إذ ان الاميرين اصبحا يتشاجران فيما بينهما والقبائل البجاوية التى رفضت تدخل الغرباء فى شئونها اصبحت تحتمى بالجبال . بدأت المصادمات تجد سبيلها بين البقارة والهدندوة وأظهرت الاخيرة فيها تفوقاً ملحوظاً . ادت هذه المصادمات التى شئ اشبه بالحرب الأهلية . رغم كل ذلك فإن قوات عثمان دقنة كانت ترابط حول سواكن ، وفى عام ١٨٨٨ بدأت هذه القوات تستعيد بعض قواها . ومن الآن فصاعداً بدأ الحصار يتزايد على سواكن يوما بعد يوم رغم فشل الكولونيل كيتشنر فى اسر عثمان دقنة فى هندوب .

قوة عثمان دقنة وموقفه الجديد كانا يعزيان لاسباب عدة منها ان اسمه ارتبط داخل وخارج سواكن بالرعب والخوف ثم ان الهدندوة والامرأر ، رغم انهم اقسموا فيما بينهم لتوحيد صفوفهم ضده الا انهم انشغلوا بخلافاتهم ومشاكلهم الداخلية . اضف الى ذلك أن عثمان دقنة كان يتحكم فى جيش لايستهان به من البقارة وان طوكر التى كان يسيطر عليها كانت تمده بما يحتاج اليه من الغذاء ، ثم ان السلطات فى سواكن كانت تشجع تجارة الحبوب بحيث ان كميات كبيرة من الحبوب كانت تجد طريقها الى الدراويش مما



مواضع معارك البحر الأحمر من الفترة ١٨٨٣ الى ١٨٩١.

دعم موقفهم الغذائى . امتد نشاط عثمان دقنة الى بعض المرافئ فى شمال بورتسودان لجلب بعض المؤن من الحجاز . ساعد ذلك فى نمو تجارة رابحة لم تتوقف الا بعد انشاء نقطة حكومية فى محمد قول . جلب السردار غرينفيل فى ديسمبر ١٨٨٨ قوات من مصر لرفع الحصار المضروب على سواكن . لم يخضع ذلك الامير الذى كان لازال يحتل بعض النقاط فى الصحراء مثل ارياب وابودويم . وفى ابريل عام ١٨٨٩ حقق بعض الانتصارات فى هجومه على ميناء حلايب البشارية بالقرب من الحدود المصرية . غير أن قواته طردت من هنالك فى موقعه ميسه ، وإن بشاريى عيتباى كانوا بعيدين عن تأثير المهدية عكس اخوانهم على نهر عطبرة الذين تأثروا بها تأثراً كبيراً وفى هذا يروى كاميرون - القنصل البريطانى بسواكن - كيف ان المهدية غيرت موازين القوى القبلية فى المنطقة " لقد افرغت المناطق الجبلية من سكانها وزعزعت سلطات شيوخ القبائل لدرجة ان هذه السلطات اصبحت فى ايدى شيوخ غير اكفاء ومن الدرجة الثانية . . وفى المقابل فإن القبائل التى ابتعدت عن الحرب أصبحت أقوى من ذى قبل " . وفى حقيقة الأمر أن تأثير المهدية كان أقصر عمراً مما كان متوقعاً . من الصحيح ان الميزان القبلى للأمرأر والبشاريين قد تأثر لبعض الوقت ، ولكن الهدندوة رغم خسائرهم الفادحة ، الا أنهم استطاعوا ان يستعيدوا قواهم واصبحوا أقوياء مثل ماكانوا فى الماضى .

بدأت دولة الدراويش فى التقهقر ، وفى عام ١٨٩١ خاض عثمان دقنة معركته الاخيرة دفاعاً عن طوكر ولكنه هزم وكانت خسائره ٧٠٠ قتيل . الجدير بالذكر أن أميراً واحداً فقط من المواطنين المحليين قتل من مجموعة السبعة عشر أمير الذين لاقوا حتفهم فى تلك المعركة .

من الان فصاعداً عاش عثمان دقنة حياة لاتليق به لانه بدأ يغير من أجل الذرة والماشية من قاعدته فى أدارأما على نهر عطبرة . فى عام ١٨٩٤ استولى الايطاليون على كسلا بعد صدهم لمحاولات عدة من البريطانيين لاحتلالها . ولكنهم هزموا فى نهاية الامر وسقطت المدينة أخيراً عام ١٨٩٧ فى أيدى القوات المصرية - البريطانية . اضافة لذلك فإن هزيمتهم فى أدووا فى العام الماضى قضت على طموحاتهم الاستعمارية على الاقل فى الوقت الحاضر . وفى نفس الاثناء أى عام ١٨٩٦ ، تمت اعادة احتلال دنقلا مرة أخرى ،

ومن هنا شهد عام ١٨٩٨ الزحف الاخير ، شارك عثمان دقنة مع بعض الهدندوة والبشاريين فى معركة عطبرة التى هزم وأسر فيها الامير محمود ولكنه استطاع ان يهرب حتى قبل بدء المعركة .

كانت موقعة امدرمان فى سبتمبر ١٨٩٨ هى المعركة الحاسمة لتقرير مصير السودان . إنها لم تكن معركة بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل كانت مجزرة تفوقت فيها الاسحلة الحديثة المتطورة على الشجاعة المتهورة . التحم الجيشان بعد أن فاجأ الانصار فرقة لانسر الحادية عشر كما فوجئ قبل اربعة عشر عام جيش غراهام فى تأماى . غالبية الدراويش الذين سقطوا فى خور شمبات كانوا بجاويين من جيش عثمان دقنه . لآخر مرة فى التأريخ يواجه محاربو تلال البحر الأحمر حملة السيوف وطأة الفرسان . ولابد لنا أن نستشهد عن بلائهم الحسن فى تلك المعركة بشهادة واحد من الذين شاركوا فى المعركة ، كما وردت فى كتاب تشرشل " حرب النهر " .

كانت الخيول تعدوا مسرعة فى السهول والفرسان المسمرون على ظهورها يتمايلون يمنة ويسره وكست أجسادهم الدماء ، ربما من جروح عدة ، والخيول أيضاً كانت مدرجة بالدماء بسبب اصابات مروعة ثم تقع هاوية بفرسانها . وفى ١٢٠ ثانية فقط سقط خمسة من الضباط و ٦٥ جندياً و ١١٩ فرساً من مجموع ٤٠٠ فرس .

ومنذ عام ١٨٩١ عادت الحياة الطبيعية الى شرق السودان ، وبدأت مظاهر السلم تأخذ سبيلها فى شتى دورب الحياة . فتحت مدينة سواكن للتجارة وأصبح طريق بربر آمناً وزرعت مساحات شاسعة فى دلتا طوكر بالقطن . عانى البجاويون الامرين أيام حكم الدراويش ، سيان إن كانوا مؤيدين أو معارضين له . تضاءلت اعداد الهدندوة ، اكثر القبائل التى ناصرت الدراويش ، بسبب المجاعة والحرب والمرض ، ورغم ذلك فهم استطاعوا ان يفرضوا هيمنتهم على القاش ونصف المنطقة الواقعة على نهر عطبرة . وفى الجانب الاخر كان الامرأر فى حالة من التفرقة والشتات الا الفاضلاب الذين بقوا وحدهم متماسكين . توسعت الهوة بين بشاريى عطبرة وعيتباى والبنو عامر الذين خضعوا للحماية الجزئية للاحباش والايطاليين عانوا ، كغيرهم ، من الخسائر اضافة على الفوضى القبلية . ولكن القبائل الصغيرة منهم مثل الملهيتكناب والحمران كادوا أن ينقرضوا . قتل الآلاف

بسبب الحرب ضد البريطانيين أو لاقوا حتفهم على يد الدراويش الذين حاربوا بلاهوادة كل من وقف ضدهم أو لم يبد ولاءاً لهم ، غير أن اعداداً اكبر من تلك ماتت بسبب المجاعة التى اجتاحت المنطقة ولاسيما فى عام ١٨٨٧ . بقى على قيد الحياة عدد قليل من شيوخ القبائل العظام لان سياسة الخليفة استدعت التخلص منهم . لذلك ساد جميع اراضى البجا شعور بالكراهية للحرب مقرون بخيبة أمل لما آلت اليه الامور فى المنطقة .

قوبلت التركية الحديثة باستحسان غير متوقع . كل ما بقى فى الساحة هو شخصية عثمان دقنة الذى كان يهرب بصورة متعمدة ، من ساحات القتال فى امدرمان وام دبيبكرات ، وحيثما حل قوبل بعناية واهتمام ربما لم يكن أهل لهما . لقد مضت الايام التى كان يستنفر فيها القبائل البجاوية ، غير أنه فضل ان يحتمى بهم بعد هزيمة الانصار وموت الخليفة بام دبيبكرات عام ١٨٨٩ . لقد لاذ بالفرار الى جبل وينربا محتمياً بالجميلاب (هدندوة) الذين انفضوا من حوله ووصلت كراهيتهم له بأنهم ساعدوا فى اعتقاله من قبل السلطات . نفى أخر أمراء المهدية الى مصر ثم الى حلفا ليقضى بقية ايامة فى حبس انفرادى مشرف الى ان ادركته المنية عام ١٩٢٦ . هذه الشخصية العظيمة والغامضة كادت ان تمحى من ذاكرة تلك القبائل التى تزعمها لفترة من الزمان ، غير أن اعلان وفاته عام ١٩٢٦ قاد فى إجتماع قبلى كبير ، كما روى الحاكم العام لمنطقة البجا ، « الى شعور عميق كما لو كان القيصر قد مات فى مرتفعات هذه القرية النائية » .

اختلفت حدود شرق السودان فى فترة اعادة الاحتلال عن تلك التى رسمت أيام الحكم التركى المصرى . فمثلاً ردت محافظة البقوس ، التى استولى عليها الخديوى اسماعيل ، الى أثيوبيا كثمن لمساعدتهم فى طرد القوات المصرية الحدودية ولكنها لم تضم لسيطرة ايطاليا التى ، رغم هزيمتها فى ادووا عام ١٨٩٦ ، ظلت محتلة لاريتريا ومسيطرة للمثلث الساحلى شمال سيتيت . الحق هذا التقسيم الجديد جزءاً كبيراً من قبائل البجا الجنوبية باريتريا وشمل ذلك ثلثى قبائل البنى عامر وظل الجزء المتبقى منقسماً على نفسه ، مجموعة منهم يعيشون بالقرب من كسلا والجزء الاخر فى تلال البحر الأحمر جنوب خور بركة .

الفصل الحادى عشر

التاريخ الحديث (١٩٠٠ - ١٩٥٠)

كتب هذا الفصل عن وسائل التنمية الحديثة وسط البجا وعن مدى استجابتهم وتفاعلهم مع هذه الوسائل . ستظل الصورة ، بطبية الحال ، غير مكتملة لان فترة النصف قرن الماضية التى مرت على حكم البجا تعتبر فترة قصيرة لدرجة يعصب معها الحكم النهائى ، وفى الجانب الاخر وجود حكومة مستقرة تفرض الامن والقانون وفى نفس الوقت تولى أهمية خاصة لقضاياهم لابد وأن تخلف فى نفوسهم اثراً طيباً . مما لاشك فيه أن البجا استفادوا كثيراً من ذلك الحكم الذى وفرلهم مياه الشرب والتعليم والعلاج ، فضلا على أن الادارة ساهمت ، الى حد ما ، فى رفع مستوى المعيشة وذلك بتشجيعها لتجارة الدوم وتوسعها فى زراعة القطن فى طوكر والقاش ومساهمتها فى تقليل المصادمات القبلية . ثم ان المجاعة والطاعون كانا من المشاكل التى كانت تهدد حياة البجاوى فى الماضى ولكنها الآن أقل مشاهدة بسبب توفير الغذاء والعناية اللازمين للمتضررين منهما .

وتطلب الحكومة من المواطنين مقابل ذلك التعاون معها لارساء قواعد القانون والنظام وذلك بالمساهمة بدفع الضرائب المفروضة عليهم . وفى حقيقة الامر نجاح حكومة ، أى كان نوعها ، يتوقف على نجاحها أو فشلها فى بسط قواعد القانون والنظام . رغم ان الحكومة قطعت شوطاً لابأس به فى القضاء على الجرائم الكبيرة مثل المصادمات الدموية والسلب والنهب الا أن الجرائم الفردية مثل القتل والشجار بالسيوف لم تختفِ بعد . مثلاً حتى عام ١٩٥١ كان بالامكان مشاهدة نماذج لمثل هذه الجرائم حيث ان واحداً من رجال الشرطة المسلحين حاول ان يعترض ستة من الهدندوة الذين كانوا يغيرون على ابقار البنى عامر ، وقتل فى تلك المواجهة الشرطى الذى اصيب بستين جرح فى مواضع مختلفة فى جسمه . اما بخصوص الضرائب فإن جمعها كان يحتاج الى كثير من الجهود والعمل الدؤوب .

بذلت الحكومة جهداً مقدراً فى مجال التعليم غير أن العائد لم يكن بالمستوى المتوقع لم تخف على البجا فوائد الطب الحديث غير أنهم ينظرون اليه بكثير من الشك والريبة

ويفضلون بدلاً عنه اللجوء الى نصوص القرآن والكى بالنار . لذلك كان من الصعوبة بمكان إقناعهم بالبقاء فى المستشفى لتلقى علاج أو خضوعهم لعملية جراحية بسيطة قد تنقذهم لمدى الحياة من مرض عضال مؤلم . وحتى فى مجال علاج حيواناتهم لم يدركوا أهمية الادوية العلاجية والوقائية لانهم كانوا يفضلون وسائلاً علاجية أخرى والصورة التالية رواية شاهد عيان لجمل يقوم صاحبه بعلاجه :

جر الرجل لسان الجمل الى الخارج ثم نظفه بصورة خشنة وفجأة سل الرجل سكينه وبدأ يفصد الجزء الاسفل من اللسان حتى سالت منه كميات غزيرة من الدماء ، وانتهت العملية بأن دفع الرجل بكمية كبيرة من روث الحمار فى فم الجمل .

أيضاً كان البجاوى يواجه اخفاقات كثيرة فى مجال الزراعة رغم التشجيع الدوب لذلك من قبل الحكومة . كل ذلك لم يغير من كراهيته للزراعة المنظمة . لم يكن همه فى الزراعة هم ذلك المزراع النشط الذى يولى أهتماماً خاصاً بأرضه التى تعتبر مصدر رزقه ، بل كان همه الاول والأخير هو الربح السريع الذى يجنيه من سلعة نقدية تجلب عليه عائداً مادياً سريعاً يشترى به بعض الحيوانات وينفق ما تبقى منه سريعاً .

لم يكن هنالك ، ولكتابة هذه السطور ، أمل كبير فى أن يتغير البجاوى وان يتأقلم لوسائل التنمية الحديثة . يرجع السبب فى ذلك أنه لم يتغير شخصياً ولم يتغير الوسط الذى يعيش فيه . فهو لازال يجوب الصحراء والفيافى كالأرنب الوحشى أو كحمار الوحش كما كان يفعل منذ مئات السنين وقد يستمر على هذا المنوال لسنين أخرى قادمة . ولعله من الاجدى الان عدم محاولة تغيير نمط حياته ، والاداريون الذين يبذلون قصارى جهدهم فى تحسين مستوى معيشته البسيط ، عليهم ان يقتنعوا بأن هذه السياسة سوف لن تأتى ثمارها المطلوبة ومن الافضل ان يتركوه وشأنه .

لم يسمع كثيراً عن البجا فى فترة العشرين عام الاولى للحكم الثنائى ، ربما لانه لم يكن هنالك ما يجدر ذكره . لابد من الاعتراف بأن المنطقة دخلت فى طى الكتمان لان إدارتها كانت اسميه لدرجة أنها اصبحت منسية وان أحداً لم يهتم بها .

كانت الحكومة الجديدة مشغولة بالإشراف على رقعة واسعة ، ومع تطور الأساليب الإدارية الجديدة لابد من اعطاء الاولوية لمناطق اكثر دخلاً وانتاجاً ولأناس يسهل الوصول

اليهم واكثر انقياداً من سكان البحر الأحمر الانعزاليين البدائيين . لايتوقع المرء كثيراً من قوم لايتحدث أحد لغتهم ولايعرف الكثير عن طباعهم وعاداتهم وتأريخهم وينفرون من السلطة كأنها الطاعون .

لم يذعن البجا لسلطة ولم يدفعوا ضريبة متى ما كان ذلك ممكناً . لذا عاشوا فى سعادة تامة راضين كل الرضا عن حياتهم الطليقة ، واستمروا فى حروبهم وخلافاتهم القبلية مما أدخل اليأس والاحساس بالفشل فى نفوس الاداريين الذين تعاقبوا على إدارة مناطقهم . وبطبيعة الحال كان تواجد السلطات الادارية اكثر حضوراً فى المناطق الساحلية التى يسهل الاشراف عليها من سواكن عاصمة محافظة البحر الأحمر . ومن هنالك انشأت الحكومة نقاطاً ادارية أخرى فى طوكر وعقيق ومحمد قول وحلايب . من المفترض أن يتم الاشراف على بشاريى عيتباى من حلايب ولكنهم كانوا يتنقلون بين محافظتى البحر الأحمر وبربر ولم يلحقوا بمحافظة البحر الأحمر نهائياً الا فى عام ١٩٢٣ .

بدأت زراعة القطن لأول مرة فى طوكر عام ١٨١٩ ، أى بعد اعادة الاحتلال . لذلك قامت الحكومة بحرث ٢٫٠٠٠ فدان ولكن المنطقة لم تشهد تنمية جدية الى فى ١٩٠٥ - ١٩٠٦ حيث بلغت الرقعة الزراعية ٥٠ ألف فدان . وفى الظروف العادية تراوحت الرقعة المروية هناك بين ١٥٫٠٠٠ الى ١٢٠٫٠٠٠ فدان وذلك بسبب التفاوت السنوى فى كمية المياه التى يجلبها خور بركة . لهذا كان من الصعب فى مثل هذه الظروف وضع برنامج تنموى ثابت ، كما لم يكن البجاوى ذلك الشخص المقتصد الذى تتعدى نظرته اللحظة الحاضرة . لذلك تارجح دخله من طوكر ما بين الرفاهية المسرفة والفقر المدقع .

تمثلت الصعوبة الحقيقية فى إدارة البجا فى أن المنطقة خضعت لحدود جغرافية وهمية لم تفصل بين القبيلة الواحدة ولكنها فصلت حتى بين العشيرة الواحدة . فمثلاً نجد أن غالبية الامرأر كانوا يخضعون لإدارة محافظة البحر الأحمر ، فى حين ان بشاريى عيتباى وعطبرة خضعوا لسطات محافظة بربر . وفى الجانب الاخر فإن الهدندوة والبنى عامر كانوا منقسمين ادارياً بين محافظتى البحر الأحمر وكسلا . لذلك كان من السهولة بمكان التهرب من دفع الضرائب . اضافة لذلك فإن طرق جمع الضرائب كانت تختلف من محافظة لأخرى كما كان الحال بين محافظتى البحر الأحمر وكسلا . وهذا بدوره كان

كافياً لخلق كثير من المشاق والفوضى للقائمين بهذه المهمة . والصورة التالية توضح رأى واحد من الذين ارتبطوا بجمع الضرائب .

« لقد تأثرت الوحدة القبلية والتعايش السلمى بين القبائل وأصبح الهاجس الرئيسى للدولة ولعدة سنين هو الأمن والاستقرار وانعدمت الثقة فى الحكومة وبالتالى اصبح جمع الضرائب كابوساً مؤرقاً » .

امتدت حالة عدم الرضا لفترة من الزمان ، غير ان الانجاز المهم الذى يجدر ذكره فى تلك الفترة هو تنصيب احمد محمود (١٩١٦) ناظراً لعموم الامرأر خلفاً لوالده الذى اعدمه عثمان دقنة . جاء هذا التنصيب رغم معارضة الفاضلاب للإنصياع لناظر من الأتمن . وفى عام ١٩١٨انتاب بعض الخلل الطارئ إدارة البجا عندما استطاعت مجموعة صغيرة من الهدندوة يقودهم مهووس من غرب افريقيا اقتحام حامية كسلا التى تضم جنوداً مصريين . لحسن الحظ فان هذه العملية اخمدت فى مهدها قبل ان تتوسع وتشمل جهات أخرى . بعد ذلك وجه لوم شديد لادارة البجا ولادارة الهدندوة بصفة خاصة بسبب الخلل الادارى وفى « عدم تفهمهم للروح العدائية التى تسود هؤلاء المواطنين الذين يصعب الوصول اليهم مما يجعل التعرف عليهم شيئاً أشبه بالمستحيل » .

لم يحدث الكثير لتحسين الاوضاع فى المنطقة وذلك للنقص المريع فى الكوادر والموارد المادية . ومما زاد الامور تعقيداً هو حالة المد والشد بين محافظة البحر الأحمر والمحافظات الاخرى على إدارة البجا . وفى عام ١٩٢٦ علق حاكم المنطقة الذى نقل لتوه من كردفان عن « طبيعة التكوين القبلى وفقدان النظام الداخلى لها » . عزى ذلك الى الطريقة الادارية المتبعة مما ينجم عنه اضعاف للحكومة وبالتالى استحالة جمع الضرائب . قد يكون الادارى المذكور محقاً فيما ذهب اليه ، غير انه قد تخفى للمشاهد ، لأول وهلة ، تلمس الانجازات وبالذات المتواضعة منها ، ولكن الصورة بدأت تتضح بعد عشرين عاماً . ولكن النتائج المرجوة من إدارة البجا ، رغم المحاولات الجادة ، لم تتحقق بالصورة المرضية وذلك لاستحالة فرض سلطة القانون لشتات من التجمعات القبلية .

كان هنالك اقرار للنقد الموجه عام ١٩٢٦ لسياسة التقسيم المتبعة فى المنطقة . لقد اتبعت سياسة سخيفة للتقسيم والتجزءة هدفها الرئيسى هو تفادى الاحتكاك القبلى

وتحسين مستوى جمع الضرائب . رغم الفشل الذى منيت بها كلتا السياستين الا أن محاولات جادة قد بذلت فى ١٩٢٣ - ١٩٢٤ لتحقيق اعلى قدر من الترابط والتماسك القبلى ولاسيما بعد ايقاف أى نفوذ ادارى لمحافظة بربر فى شئون البجا. لم يقض ذلك على كل أسباب التجزءة القبلية حيث ان بشاريين عيتباى الحقوا بمحافظة البحر الأحمر فى حين ان بشاريين عطبرة ضموا الى كسلا ، وظل الهدندوة أيضاً منقسمين بين المحافظتين . لم يحظ الامتياز الكامل لشركة كسلا للقطن لزراعة القطن فى دلتا القاش الا فى عام ١٩٢٤ - ١٩٢٥ . والهدندوة منذ قدومهم للقاش فى القرن الثامن عشر لم يساورهم الشك فى أن القاش ملك خاص بهم يلجأون لمياهه الغزيرة ولعشبه الغنى حتى ماضاقت بهم السبل ، اضافة ان المنطقة تنتج اجود انواع الحبوب حيث يرحل الفائض منها الى الساحل ومن ثم الى الحجاز . هذا المخزون الرعوى والزراعى الهائل للقاش جعل الهدندوة ينظرون بالريبة والشك الى الشركة الاجنبية التى تحاول التدخل فى شئون اكثر المناطق خصوبة ولتحويل مياه القاش الى زراعة القطن ، تلك السلعة التى لم يبد البجا نحوها أى حماس يذكر .

وفى عام ١٩٢٤ وصلت الرقعه الزراعية التى استغلتها الشركة فى القاش حوالى ٩٠٠٠ فدان وبعد ثلاثة اعوام ، أى عام ١٩٢٧ ارتفعت هذه الرقعه الى ٣٦٠٠٠ر فدان . لم يكتب النجاح لهذا المشروع رغم التوسع الافقى فيه والسبب فى ذلك التعارض الواضح بين المصالح التجارية والحقوق القبلية للهدندوة والذى تمثل فى فقدانهم لحقهم الذرة والرعى . وأهم من ذلك الحد من حركتهم وترحال حيواناتهم فى ارض يعتبرونها ملكا خالصاً لهم . لذلك لم يكن فى الامكان احتواء هذا التعارض فى المصالح مما أدى فى النهاية الى خلافات طويلة حاولت معها سلطات المحافظة ان تمسك العصا بالنصف ولكن بدون جدوى . توصلت الحكومة فى النهاية الى نتيجة بان الهدندوة غير متعاونين وفى نفس الوقت غير راغبين فى العمل وهذا بدوره جعلها تستجلب مزارعين من وادى النيل . لم يزد هذا الاجراء الامور الا تعقيداً لأن الهدندوة الرافضين لزراعة القطن بانفسهم لم يحتملوا تقسيم ارض القبيلة للاغراب وبالتالى بدأوا يلجئون الى تخويف وارهاب المزارعين الوافدين واستعمال العنف وحتى القتل أحياناً .

تردت الاحوال من سئ الى اسوأ مما أدى تدخل الحكومة عام ١٩٢٩ والى سحب الامتياز من الشركة وتعويضها بأراضى زراعية فى الجزيرة . تولت الحكومة هذه المرة الاشراف المباشر على المشروع محافظة بذلك على أهدافه التجارية وفى نفس الوقت آخذة فى الإعتبار الحقوق الشرعية للهدندوة فى الارض ، الامـر الذى فشلت الشركة فى موازنته . رغم الخلفية الزراعية الفقيرة للبجا (وبالذات الهدندوة) الا أن ٧٠٪ من الاراضى الزراعية خصصت لهم . الآن وبعد عشرين عام من اشراف إدارة القاش على زراعة المشروع نجد أن البجا لايستطيعون نكران فضل زراعة القطن عليهم ؛ أنهم يعلمون جيداً لولا هذه التجربة لأصبحوا اليوم اكثر فقراً وتخلفاً مماهم عليه الان . كما أظهرت التجربة بأن البجا لايمكن تصنيفهم على انهم مزارعون من المرتبة الأولى الا انهم ابدوا مرونة كبيرة فى التأقلم للظروف الجديدة . ومن هذا المنطلق يجب النظر الى المشروع بمجمله بأنه محاولة للتوفيق بين العمل التجارى المربح والمصالح القبلية التى يجب عدم تجاوزها .

يوضح الجدول التالى الزيادة المضطردة للبجا فى مشروع القاش منذ نشأته :

	١٩٢٦ - ١٩٢٧	١٩٣٠ - ١٩٣١	١٩٥٠ - ١٩٥١
الهدندوة	٦٣٨٠	١١٥٠٠	١٩٠٢٠
البجا الأخرين	٦٣٢٠	٧٨٨٠	٢٤٨٠
غير البجا	٨٤١٠	٧٤١٠	٥١٤٠
المجموع	٢١١١٠	٢٦٧٩٠	٢٣٦٢٠

جاء فى التقرير السنوى عن حالة وإدارة مالية السودان لعام ١٩٢٧ مايلى " شكلت لفترة طويلة القبائل الناطقة بالبجاوية فى شرق السودان معضلة ادارية لم يتوفر لها الحل المناسب " . لذلك كان من غير المحتمل السماح باستمرارية هذا الوضع . لهذا تم تعيين حاكم خاص بالبجا هو المستر ينغ الذى أوكلت اليه سلطات كاملة لجميع البجا ، بصرف النظر عن الحدود الجغرافية للمحافظات . كلف هذا الحاكم بدراسة المشكلة ووضع مقترح متكامل عنها لوضعه لاحقاً موضع التنفيذ . بناءاً على تلك الدراسة دمجت محافظة البحر

الأحمر وكسلا وتم توحيد البشاريين والهدندوة ، وبالتالى وضع غالبية قبائل البجا تحت ادارة مركزية رئاستها فى سنكات . كما وحدت أيضاً الوحدات القبُلية المتفرقة وخفضت الضرائب لمقادير يسهل جمعها . اقترحت الدراسة أيضاً إنشاء إدارات أهلية جديدة ومحاكم من الاعيان والمشايخ تفصل فى النزاعات والقضايا المحلية بالعرف القبلى .

كان الهدندوة يحكمون من قبل ناظر طاعن فى السن غير محبوب ، لذلك استبدل فى عام ١٩٢٧ بالشيخ محمد محمد الأمين ترك الذى أظهر منذ الوهلة الأولى ملكات قيادية نالت الرضى والتأييد من مواطنيه والحكومة فى آن واحد . لم يتم توحيد البشاريين تحت نظارة واحدة الا فى عام ١٩٢٩ ، وفى نفس الوقت بذلت الحكومة جهوداً حقيقية للتخلص من الشيوخ الغير مهمين وتوابعهم . لقى النظام الادارى الجديد للبجا والذى تتم فيه حسم القضايا المختلفة فى اجتماعات سنوية نجاحاً وشعبية غير متوقعين . استطاع هذا النظام خلال العشرة سنة التالية ان يكتسب ثقة البجا كما استطاع ان يوفر لهم بعض الرفاهية . توالت على حكم المنطقة ادارات ابدت تعاطفاً مع البجا ومشاكلهم وبدأت تدرس تأريخهم وعاداتهم واستطاع بعض الاداريين منهم أن يتحدثوا اللغتين البداوييت والتقرى بطلاقة . هذا لم يعنى مطلقاً بأن هذه الادارات لم تواجه بعض المشاكل والنكسات . لقد كانت هنالك مشاكل كثيرة ولكن المرحلة ، بصفه عامة ، كانت مرحلة استقرار ووحدة ، والسلوك البجاوى الذى ولد فى بعض الوقت كثيراً من اليأس والاحباط فى نفوس بعض الاداريين وجد الان من يتعاطف معه بل ومن يعجب به أيضاً .

هذا ما كانت عليه الامور حتى التهديد الايطالى الذى بدأ فى صيف وخريف عام ١٩٤٠ والذى بدأ بإحتلال كسلا تمهيداً لغزو السودان . والقبائل البجاوية (بالذات الهدندوة) التى وصفت فى وقت ما بالخيانة والغدر وقفت بجانبا وقدمت لنا خدمات جليلة اثناء ذلك الغزو . اسندت المراقبة فى طوكر لدورية صغيرة سميت بدورية المروج لمراقبة أى عدوان على بورتسودان . لم يتم ذلك الهجوم وسرحت هذه الدورية فى مايو ١٩٤١ بعد مشاركتها فى الحرب الدائرة بمصوع . تكونت فى القاش وحدة تجسس من الهدندوة سميت بوحدة الغابة . لم يشكل البجا فى يوم من الايام وحدة عسكرية يعتمد عليها ، غير أن هذه الفرقة انجزت المهمة التى أوكلت لها بصورة لاتنافسه فيها أى فرقة أخرى . والكلمات البليغة

التالية جاءت على لسان جندى إيطالى اسير يوضح فيها كيف أن البجاوى يؤدى مهمته :

بعد احتلالنا لكسلا وإلى هذا اللحظة لم يستطع احد من مخبرينا ان يخترق مناطق البجا وأى شخص ارسل الى هنالك لم يرجع الينا مرة أخرى . وبإختصار استطاع الانجليز ان يأمنوا المنطقة التى تفصل بيننا بدون أى جيش أو أى قوة اضافية وذلك باستعمالهم للهدندوة الذين هم اصلا لصوص وقطاع طرق ومحاربين اشاوس .

بعد هزيمة الايطاليين فى اريتريا كان من المفترض ان تمر منطقة الحدود بمرحلة من الامن والاستقرار واعادة البناء والتعمير . لم يكدر صفو هذه الحياة الا اولئك الذين اطلق عليهم " باللصوص وقطاع الطرق" الذين حرموا من افساد ذلك الوضع . منع الهدندوة من مطاردة بنى عامر اريتريا كما تعودوا ذلك فى السابق . ولد فيهم ذلك احساساً بأن هذا وضع غير سليم ، ومثل هذا الشعور كان اكثر تلمساً لدى الجميلاب الموجودين فى منطقة الحدود مباشرة واكثر بطون الهدندوة انعزالية . لذلك واصلوا غاراتهم على البنى عامر فى اريتريا مدعومين فى ذلك بتأييد عام من القبيلة وحتى من بعض زعمائها الذين كان فى مقدورهم ضبط الامور وتهدأة الاحوال . لم يكن هنالك مجال لمحاسبة ومحاكمة المعتدين وجلبهم للعدالة وبالتالى انصاف البنى عامر كما يجب ، والنتيجة لذلك ان يأخذ البنو عامر القانون بايديهم ويشكلوا عصابات مسلحة بالمدافع والذخيرة التى هجرها الايطاليون أثناء هزيمتهم أو صرفوها للجنود المحليين . استولت هذه العصابات على هذه الاسلحة والتجأت بها الى المناطق الجبلية النائية حيث شنوا من هنالك غارات مضادة ناجحة ضد الهدندوة فى منطقة الحدود .

وعلى مدى الصراع الدموى الطويل بين القبيلتين وجد الهدندوة انفسهم فى موقف لا يحسدون عليه وكفتهم اصبحت هى الخاسرة لعدم استطاعتهم مجابهة الاسلحة الحديثة باسحلة تقليدية كالسيف والرمح ، كما لم يستطيعوا بعد التخلص من عدم ثقتهم فى البندقية لانهم حتى بعد تحصلهم على ذلك السلاح استغنوا عنه بعد طلقة أو طلقتين ليلجأوا فى حالات الالتحام المباشر الى السلاح الابيض . لذلك لم تجد مجموعات البنى عامر المغيرة (التى سميت بالشفتة) مشقة فى القضاء على كل مظاهر المقاومة حيثما وجدت وتمشيط منطقة الحدود فى فترة وجيزة وقتل كل الهدندوة الذين يجدونهم فى طريقهم

والاستيلاء على قطعانهم وعلى مضاربهم الشتوية بطوكر . بهذا جعلوا الحياة غير مطاقة لهم فى خور بركة وحتى فى لانقيب وجنوباً حتى قرقر على مسافة يوم واحد من كسلا .

شعرت الحكومتان الاريترية والسودانية ان عصابات الشفتة اصبحت تشكل تهديداً حقيقاً للأمن لأن نشاطها لم يقتصر على الهدندوة فقط بل شمل مجموعات أخرى وبالذات فى حالة نفاذ مصادر تموينهم . لهذا شكلوا قوة مشتركة للقضاء عليها ولكن دون جدوى . والسبب فى ذلك ان قوة صغيرة من الشفتة لايتعدى عددها خمسة عشر شخص كان بإمكانها ان تغطى مساحة ثلاثين ميلا فى ليلة واحدة . والسبب الثانى الذى أدى الى فشل القوات هو انخراط وتعاطف بنو عامر السودان معهم فى الهجوم المشترك على الهدندوة – العدو المشترك لهم . لم يطرأ أى تحسن على الموقف للثلاثة سنوات الأولى ولكن فى عام ١٩٤٦ قرر الشفتة (ولاسباب مبهمة حتى الآن) وضع اسلحتهم والاستسلام وقبول العفو الذى منحته لهم السلطات الاريترية . تلت ذلك حلقات من الاجتماعات السلمية بين القبيلتين دفعت فيها آلاف الجنيهات تعويضاً للخسائر الناجمة عن الحرب .

إذا استثنينا الشفتة وما ارتبط بها من مشاكل نجد أن المنطقة لم تشهد أى هدوء يذكر بعد الحرب مباشرة وذلك بسبب الاضطرابات التى نشبت بين البنى عامر أنفسهم فى السودان واريتريا . ويرجع ذلك الى أنهم أبدو مع المجموعات المنتمية للتقرى ، ولأول مرة فى تاريخهم ، رفضاً صريحاً لهيمنة طبقة النابتاب الذين يمكن مقارنتهم بنبلاء اسكتلندا فى القرنين الخامس والسادس عشر والذين تمتعوا بحقوق لايمكن المساس بها . هنالك أسباب قادت الى ذلك الوضع وهى ان الحكومة خلال حكمها للخمسة عشر عاماً المنصرمة بدأت تفرض الامن والسلام ومن ثم انتزعت من النابتاب دور الوصاية التى كانوا يدعونها للمجموعات التي كانوا يهيمنون عليها . اعفى النابتاب انفسهم من دفع الضرائب غير انهم كانوا يجمعونها من التقرى بفوائد خاصة لهم ، وفى نفس الوقت كانوا يطلبون منهم رعاية حيواناتهم وحليها والقيام بجميع الاعمال الوضيعة الاخرى . لم يدرك النابتاب التطور الذى طرأ ، بمرور الزمن ، على العلاقات الاجتماعية بين الناس اذ كانوا يصرون الى هذه اللحظة على عدم التنازل عن امتيازاتهم الطبقية المطلقة ومعاملة التقرى على انهم طبقة وضيعة من البشر .

جلبت الحرب أيضاً بعض الآثار الأخرى على مجموعة الرقيق . شهدت المنطقة شحاً حاداً فى الامدادات وحتى تلك التى تصل منها مثل الملابس والحبوب والقهوة والسكر كان للنابتاب منها نصيب الاسد وما تبقى من ذلك ، ان كان هنالك شئ ، فهو يذهب الى التقري المستضعفين ولكن بإسعار باهظة . بدأت أول شرارة للتمرد على هذه الاوضاع عام ١٩٤٤ ثم تحولت فى عام ١٩٤٧ الى ثورة ومواجهة مكشوفة فشلت معها كل محاولات الوفاق بين الطرفين . لذلك استدع الامر عام ١٩٤٨ الى مراجعة كاملة لنظارة البنى عامر واعادة بنائها مرة أخرى . احال التكوين الجديد النابتاب الى وضع لايختلفون فيه عن المجموعات القبلية الاخرى وارجع التقرى الى تقسيماتهم القبلية القديمة . بناءاً على ذلك اصبحت تطل مرة أخرى ، بعد قرون من الزمان ، الاسماء القديمة مثل الألمدا والأسفدا والولينوهو وغيرها .

كان هنالك خوف حقيقى من أن تفسد فترة الاضطهاد الطويلة التقرى وان قياداتهم على كل الاصعدة لم تتعد بعض الاشخاص ذوى المستوى المتواضع ، اضافة لذلك كان ينتابهم احساس بأن التحرر يعنى بالضرورة ان يفعلوا ما يشاءون دون تقيد بالنظام الإدارى السائد . كان الحل لمشكلتهم يكمن فى فرض نظام إدارى صارم لفترة طويلة يحاول فيها ذلك النظام التعاطف مع قضاياهم ودعم تماسك القبيلة ومنعها من التشتت والتفرقة . كان هنالك اعتقاد بأن إزالة النابتاب كطبقة مهيمنة من شأنه أن يترك البنى عامر مشتتين ومندثرين . لذلك كان من الضرورى أقامة كيان ادارى لملأ ذلك الفراغ .

ظلت إدارة البجا قبلية فى كل جوانبها ويجب عليها ان تظل كذلك ماداموا يمتهنون الرعى . وفى طوكر فقط ، التى يسكنها هجين من الفلاحين والحضر ، كان يمكن تجربة نظام الحكومة المحلية كما هو متبع فى مناطق أخرى من السودان . لذلك دشن فى يناير ١٩٤٨ أول مجلس لمنطقة طوكر والذى سمى محلياً بالمجلس الأهلى وأوكلت اليه ادارة المدينة والدلتا وخور بركة والشريط الساحلى للقنب بين الدلتا وبورتسودان . يتكون ذلك المجلس من خمسة عشر عضو منتخبين يمثلون مدينة طوكر والدلتا والرعاة وثمانية اعضاء أخرين معينين من قبل الحاكم ويرأس المجلس الحاكم العام للمنطقة . استمرت هذه الادارة بصورة سلسلة حتى وصلت ميزانيتها الى ٢٥٫٠٠٠ جنيه مصرى .

لانود الآن طرح أى قضايا مستقبلية بل علينا ان نضع موضوع البجاوى برمته جانباً ونحاول ان نلخص الجهود التى بذلت لتحسين وضعهم ثم تقييم مستوى النجاح الذى تحقق فى ذلك المجال . لقد حاولنا ان نضع البجاوى فى مناطق اكثر انتاجاً وان نحميه من الفقر والجوع بعيداً عن تلك المناطق الهامشية التى عهدها كعيتباى مثلا ، غير انه رفض وباصرار شديد ان يغادر تلك الصحارى المجدبة . كما حاولنا أيضاً ان نجذبه الى عالم الطب الحديث وما يجلبه له من خير ومنفعة ولكن أبى الا أن يتمسك بوسائل علاجه التقليدية مثل السكين والكى بالنار . اضافة لذلك فقد حاولنا ان نوفر له المدارس والمعلمين ولكن بدون جدوى . لقد اجتهدنا ، وبقدر استطاعتنا ، ان نطور موارده الشحيحة لنحسن من مستواه المعيشى ولنوفر له حياة اكثر امناً واستقراراً ولكنه فضل التمسك بجباله النائية والسفر عشرات الاميال من اجل قربة ماء . لعله اقتنع أخيراً ان يتحمل حاكميه ويرضى بالتعايش معهم ، بل وان يحبهم (على الاقل بعض منهم) فى بعض الاحيان وذلك تقديراً وعرفاناً لما أرسوه من سلطة الامن والقانون . أوضحت التجارب ان هذه الطاعة لم تكن مطلقة وانما كانت لظروف خاصة ولمرحلة محددة يتم بعدها الاحتكام للسيف وما يترتب عليه من اراقة للدماء . لذلك ظل البجاوى - كما كان فى السابق - محارباً مستقلاً لا يعطى أى قيمة لكل التناقضات التى تكتنف حياته . جملة القول انه يمثل نمطاً فريداً للحياة التقليدية :

جلس الأسبارطيون على صخور شاطئ البحر المبللة يمشطون شعورهم .

الملحق الأول

الاحداث البجاوية

قبل الميلاد

٢٧٥٠	التاريخ التقريبى لأول استغلال لمناجم الذهب فى الصحراء الشرقية من قبل الاسرة السادسة .
٢٦٥٠	حملة بيبى الثانى الى البنط .
٢٠٠٠ – ١٥٨٠	الامبراطورية الوسطى . حملات عدة الى الصحراء الشرقية .
١٤٦٠	حملة حتشبسوت الى البنط .
١٤٥٠	استغلال مناجم الصحراء الشرقية من قبل الاسرة الثامنة عشر .
١٣٣٠	سيتى الاول ، الاسرة التاسعة عشر ، يفتح مناجم درهيب
١٠٥٠	هجر المناجم بعد سقوط الاسرة العشرين .
١٠٠٠ – ٦٠٠	التاريخ التقريبى لاستعمار السبئيين لمرقفعات التقرى .
٣٢٠ – ٢٢٠	استغلال البطالسة لتجارة البحر الاحمر .
٢٩٠	هجوم ناستاسنين المروى للبجا .
٢٨٥	تأسيس بوتليمياس ثيرون (عقيق) كمحطة للافيال .
٢٧٥	بطليموس فيلاديلفوس يؤسس بيرنيس .
١١٠	غزو ابرهه ذى المنار لافريقيا من اليمن .
٤٠	الباطلسة يهجرون مناجم البحر الاحمر .
٣٠	الاحتلال الرومانى لمصر .
٢٣	الاكتساح الرومانى لنبتة .

بعد الميلاد

٤٧	اكتشاف هيبالوس للمونسون .
٥٢	الرومان يرسلون اسطولاً للبحر الاحمر للقضاء على القرصنة .
٦١	حملة نيرو الى مروى
٦٤	أول ذكر لأكسوم

٩٠	يقوم ابوالمالك بن شامنار – يراشن بحملة فاشلة لعيتباى .
١٣٧	انتصار جنرالات الحدريان على البجا .
٢٤١	البجا يغزون مصر العليا .
٢٦٨ – ٢٧٥	احتلال البجا لمصر العليا .
٢٧٠	مفاوضات اورليان مع اكسوم .
٢٧٥ – ٢٨٠	بروباس يطرد البجا .
٢٨٤	ديوكليتيان يسترجع منطقة الحدود ويقدم مساعدات لمنع أى هجوم .
٣٤٠	اعتناق اكسوم للمسيحية بمساعدة فرومنتوس .
٣٥٦	ايزناس ملك اكسوم يدمر مروى .
٤٢٥ – ٤٣٠	هجوم البجا على مصر .
٤٥١	ماكسيمينوس يخضع البجا .
٥٢٥	اسبها ملك اكسوم يحتل مملكة حمير اليمنية .
٥٣٣	حستين يقترح اقامة حلف معاد للفرس مع اكسوم .
٥٣٦	جستنيان يغلق معبد ايزيس فى فيللى .
٥٣٨ – ٥٣٩	تكرار هجمات البجا على مصر .
٥٤٠	سيلكو ملك النوبة يهزم البجا هزيمة ساحقة .
٥٥٠ – ٦٠٠	البجا يعتنقون المسيحية بصورة اسميه .
٥٧٧	أخر ذكر لهجوم بجاوى على مصر .
٦٠٠	أول ظهور لبادئ على البحر الأحمر واستقرار البلو بعيتباى .
٦٤١	الغزو العربى لمصر . موقعه بهناسا .
٦٩٠	التاريخ التقريبى لاستقرار الحلنقة بالقاش .
٧٠٠ – ٨٠٠	تدهور اكسوم .
٨٠٠	التاريخ التقريبى لاستقرار الارتيقه بسواكن .
٨٣١	حماة عبدالله بن جهم ضد البجا .
٨٥٤	انتفاضة البجا الذين غزو مصر حتى اسنا .
٨٥٥	محمد عبدالله بن جامعى يهزم البجا .

٨٧٨	ابوالعمرى عبدالله يعيد افتتاح مناجم وادى العلاقى
٩٠٠	التاريخ التقريبى لوصف اليعقوبى لستة ممالك بجاوية بين اسوان ودهلك .
٩٤٥	ربيعة فى اوج مجدها فى مناجم الصحراء الشرقية .
٩٦٩	هجوم بجاوى كاسح لمصر العليا .
١٠٢٨	أول ذكر لعيذاب كميناء للحجاج .
١١٥٠	سكان بادئ يهجرون المدينة .
١١٥٣	الصليبيون ينهبون عيذاب .
١٢٦٦	حملة المماليك ضد سواكن .
١٢٧٠	التاريخ التقريبى لاستقرار الكواهلة بعيتباى .
١٣٢٦	زيارة ابن بطوطه لعيذاب .
١٣٤١	استنزاف وهجر مناجم الصحراء الشرقية .
١٤٢٢	زيارة أول سفينة تجارية هندية لسواكن .
١٤٢٦	بيرس بيه يدمر عيذاب .
١٤٧٠	البشاريون يطردون الحدارب (البلو) من عيتباى .
١٤٩٠	حملة بيدرو دى كوفيلهام الى الحبشة .
١٥٠٠ - ١٦٠٠	تسلل البلو والقبائل البجاوية الاخرى الى شمال التقرى .
١٥٠٤	قيام مملكة الفونج على يد عمارة دنقس .
١٥٢٠	احتلال الاتراك العثمانيون لسواكن ومصوع .
١٥٢٠ - ١٥٥٠	الهدندوة يطردون البلو من منطقة سنكات .
١٥٣٠	بيت عسقدى (حباب) يغزو ساحل البحر الاحمر .
١٥٨٠	النابتاب (بنى عامر) يطيحون بالبلو .
١٧٢٠	توسع الامرار نحو الغرب .
١٧٥٠	هجرة البشاريين الى عطبرة .
١٨٠٠	احتلال الهدندوة للقاش ومنتصف منطقة نهر عطبرة .
١٨١٤	زيارة بيركارت للتاكا وسواكن .

١٨٢١ الاحتلال المصرى لسواكن .

١٨٢٣ الهجوم المصرى الاول على التاكا بقيادة الدفتردار .

١٨٣٢ - ١٨٣٦ هجوم أخر بقيادة خورشيد باشا .

١٨٣٣ زيارة لينان دى بيلفوند لعيتباى .

١٨٤٠ المصريون يأسسون مدينة كسلا .

١٨٤٤ حملة أحمد باشا منيكلى للتاكا .

١٨٤٨ الاتفاق المصرى مع البنى عامر .

١٨٦٤ تمرد الفرقة الرابعة بكسلا .

١٨٧٢ مونزنقار يحتل كرن .

١٨٧٥ معركة غوندت . الاحباش يهزمون المصريين .

١٨٧٦ معركة غورا . هزيمة مصرية أخرى .

١٨٨١ اندلاع الثورة المهدية .

١٨٨٣ أول هجوم فاشل لعثمان دقنة على سنكات . معركة التيب الأولى .

١٨٨٤ معركة التيب الثانية (معركة بيكر) . سقوط سنكات وطوكر . معركة التيب الثالثة (معركة غراهام) . معركة تأماى .

١٨٨٥ سقوط الخرطوم . معركة توفريك (زريبة ماكنيل) .

١٨٨٨ معركة جميزا .

١٨٩١ اعادة احتلال طوكر .

١٨٩٤ الاحتلال الايطالى لكسلا .

١٨٩٧ الاستيلاء على كسلامن الايطاليين .

١٨٩٨ معركة امدرمان .

١٩٠٠ اعتقال عثمان دقنة .

١٩١٨ حادثة سامبو . هجوم الهدندوة على حامية كسلا .

١٩٢٤ شركة قطن كسلا تبدأ زراعة القطن بالقاش .

١٩٢٨ توحيد ادارة البجا تحت لواء محافظة كسلا .

١٩٢٩ إدارة القاش تحل محل شركة قطن كسلا .

١٩٣٩ - ١٩٤٠ الاحتلال الايطالى لكسلا .

١٩٤٣ - ١٩٤٦ مشاكل الحدود بين الهدندوة والبنى عامر .

١٩٤٨ تحرير رقيق البنى عامر . تأسيس مجلس منطقة طوكر .

الملحق الثانى

القبائل البجاوية وفروعها

منطقة البجا

١ - الامرأر ٦٧٠٠٠ نسمة

ينقسم الامرأر الى مجموعتين رئيسيتين ، الامرأر والاتمن . تنقسم الأولى الى :

فاضلاب عشيباب

ينقسم الأتمن الى :

علياب : أرفوياب كيلاب
منوفلاب منياب

قويلاى : موساياب عمر حساياب
سندرابيت عبدالرحيماب
عبدالرحماناب

كرباب

نوراب (فى منطقة طوكر)

٢ - بشاريين ٤٥٠٠٠ نسبمه

ويتفرعون كما يلى :

أم على : علياب عمراب
حمداوراب شنتيراب

أم ناجى : ايراياب ويلاأليا ب

نافعاب بطران

منصوراب مداكير

عدلوياب مشبولاب

حمداب قراب

تعيش الفروع الاولى لأم ناجى فى عيتباى والبقية على نهر عطبرة .

٣ - الهدندوة ١١٠٫٠٠٠ نسمة

فروعهم الرئيسية هى :

ويلاأليا ب بشارياب

سمرأر ميشاب

جميلاب شرعاب

هاكولاب سمرندواب

قرعيب ترك

كلولى إميراب

حامداب شبوديناب

بيرناب قورهباب

بوقليناى رَبَمَكْ

٤ - كاملاب ومرفوماب ١٢٠٠ نسمة

٥ - سيقولاب وميلهيتكناب ٨٠٠ نسمة

المجموع ٢٢٤٫٠٠٠ نسمة

منطقة طوكر

٦ - البنى عامر ٣٠٫٠٠٠ نسمة

ويتفرعون كالآتى :

نابتاب

عجيلاب

تقرى :	ألمدا	ميكال
	اسفدا	افلاندا
	تارقيلا	ويلينوهو
	حماسين	عد فاضل
	أبهاشيلا	ريقبات

حدارب :	سنكاتكناب	بيت موسى
	لبت	سوقاييت
	هديقو بوياب	بيت عوات
	لبس	بيت قريش
	عد كوكاى	عد الخاسا

٧ - ارتيقة	٤٫٠٠٠ نسمة
٨ - شعاياب	٣٫٥٠٠ نسمة
٩ - أشراف	٢٫٥٠٠ نسمة
١٠ - كميلاب	٢٫٠٠٠ نسمة
١١ - حسناب	١٫٠٠٠ نسمة
المجموع	٤٣٫٠٠٠ نسمة

منطقة كسلا

١٢ – البنى عامر	١٥٫٠٠٠ نسمة
وينقسمون كما هو موضح أعلاه	
١٣ – حلنقة	٢٫٥٠٠ نسمة
المجموع	١٧٫٥٠٠ نسمة

منطقة القضارف

١٤ – الحمران	٧٠٠ نسمة

الملخص

منطقة البجا	٢٢٤٫٠٠٠ نسمة
منطقة طوكر	٤٣٫٠٠٠ نسمة
منطقة كسلا	١٧٫٥٠٠ نسمة
منطقة القضارف	٧٠٠ نسمة
المجموع الكلى	٢٨٥٫٢٠٠ نسمة

الملحق الثالث

قبائل الارتيقة

يدعى الارتيقة بأن نسبهم ينتهى الى الاشراف وبالتحديد الى محمد جمال الدين ، أحد ابناء باسفار ، الذى يقال بأنه هاجر من حضرموت الى سواكن فى حوالى عام ٨٠٠ ميلادى . بدأ الارتيقة كمجموعة تجارية يوسعون نفوذهم عن طريق المصاهرة مع القبائل البجاوية مثل البويكناب والبلو وأخيراً مع الامرأر والبشاريين . وتذكر القصص الحديثة ان باسفار كان يعمل بالتجارة وصيد اللؤلؤ غير أن رصيده الرئيسى كان من اللؤلؤ وتجارة الجوارى . اكتسب الارتيقة مكانة اجتماعية مرموقة وسط البجا بفضل هجرتهم المبكرة للمنطقة حيث لم تتح مكانة مماثلة للهجرات اللاحقة . اعانهم على ذلك مكرهم ودهاءهم وطموحهم الشديد ولكى يحافظوا على تلك المكانه كان عليهم ان يدعموها بالتزاوج مع فتيات المنطقة – ممارسة لم تتح أو لم يهتم بها غيرهم .

حل الأرتيقة كسادة لسواكن بعد طرد البلو منها فى بداية القرن السادس عشر وورثوا عنهم أيضاً الاسم البجاوى القديم حدارب أو حداربا الذى كان يعرف به البلو فى الماضى . كان زعيم الارتيقة أو امير الحدارب ، كما كان يلقب ، يتقاسم دخل سواكن مع الحكم التركى المصرى ، وكانوا يقطنون حول سواكن ويعملون فى تجارة الرقيق وأشياء أخرى كثيرة . لم يعجب بيركارت كثير بالارتيقة عند مشاهدته لهم فى شندى وفى مناطق أخرى فى عام ١٨١٣ . وأثناء عملهم بالتجارة استطاع الارتيقة ان يوطدوا العلاقات مع المسلمية بالجزيرة ، تلك المنطقة التى اشتهرت بتجارة الرقيق مثلها مثل شندى . علق دوين ، أحد الكتاب الفرنسيين ، عنهم قائلاً « كانت تعيش فى سواكن مجموعة صغيرة من الحدارب الذين اشتهروا بالتجارة والسفر وبعلاقاتهم الحميمة مع المسلمية . رغم ان عددهم كان بسيطاً الا انهم كانوا مؤثرين بفضل ذكائهم ومقدرتهم على استيعاب وسائل التقدم التى وفدت اليهم عن طريق الاروبيين» .

يعتقد الشنابلة الذين يعيشون فى الجزيرة بين مدنى والحصاحيصا ، وهم غير شنابلة كردفان ، ان نسبهم يرجع أيضاً الى الكواهلة ، انهم نتاج مصاهرة تمت بين الكميلاب

وفتيات من الحدارب أو الحضر بأربجى ، التى كانت مدينة مزدهرة على النيل الأزرق ودمرها الشكرية عام ١٧٨٤ . وبقوا هنالك الى هذه اللحظة كطبقة ارستقراطية اكثر منها كقبيلة مستقلة .

هاجر الجزء الاكبر من الارتيقة من سواكن الى طوكر فى بداية القرن التاسع عشر وهم أول من زرع الدلتا مقابل أجر يأدونه الى البنى عامر الذين كانوا يستغلون المنطقة لأغراض رعوية فقط . ومع دخول زراعة القطن الى الدلتا بدأ يتحسن مستواهم المعيشى مقارنة بالمعدلات المحلية . لذلك فهم تميزوا بالدهاء والانانية ، وان المجموعة التى تقطن منهم المدينة كانت تعيش حياة ترف واسراف بفضل العائد الذى يجنونه من حصصهم الزراعية الكبيرة فى طوكر ومن سيطرتهم على النواحى التجارية فى سواكن فى فترة ازدهارها . ينقسم الارتيقة الى ثلاثة مجموعات مميزة ، اصغرها واكثرها ارستقراطية فى سواكن . والغالبية العظمى من القبيلة متواجدة بطوكر . اما المجموعة الثالثة فتقطن القاش حيث تخضع لنظارة الهدندوة .

يتميز الشعاياب ، الذين يعدون أنفسهم فرعاً من فروع الارتيقة ، بصفات مميزة . منها انهم يتصفون بالبداوة والوحشية مثلهم مثل القبائل البجاوية الاخرى عكس الارتيقة الحضريين الذين يعملون بالتجارة والزراعة . يتمركز الشعاياب حول دلتا طوكر التى وفودا اليها مؤخراً وفى القاش وخور اربعات وفى المنطقة الساحلية بين بورتسودان وسواكن . رغم انهم يتملكون حصصاً زراعية بطوكر الا أنهم لم يبدو رغبة حقيقية فى الزراعة مركزين جهدهم الاكبر للرعى ورعاية الحيوان .

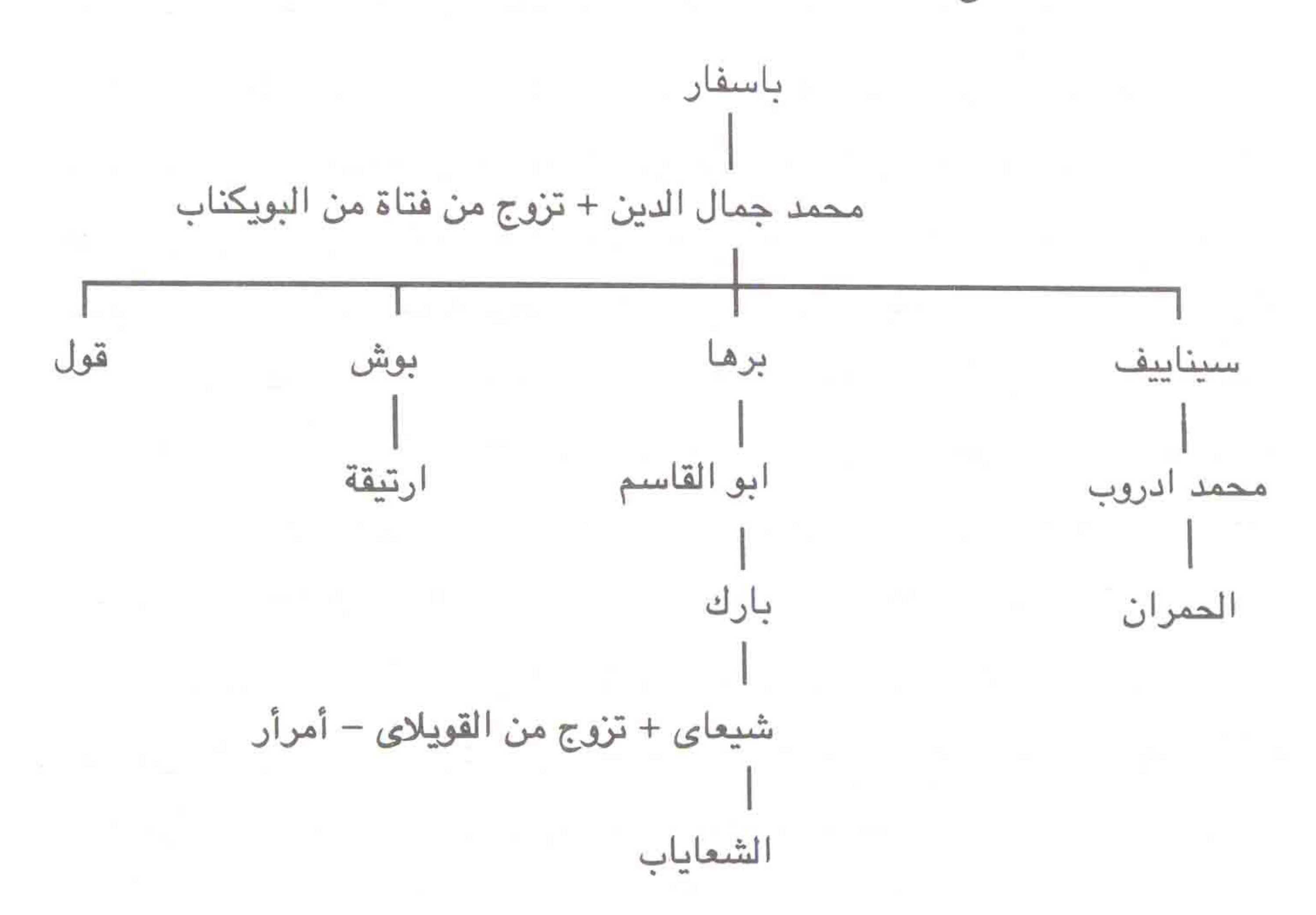
وفى الجانب الاخر يعتقد الحمران بأنهم اكثر ارتباطاً بالارتيقة مقارنة بالشعاياب . فهم يعتقدون بأنهم ينحدرون من اصول عربية خالصة ويمثلون فرعاً فى فروع حرب . وأغلب الظن انهم يتفرعون عن الارتيقة وان جدهم الكبير محمد ادروب (الاحمر) هاجر من منطقة عطبرة ومن ثم الى سيتيت التى يتواجدون فيها الى يومنا هذا . هنالك تزاوجوا مع القبائل المحلية واشتهروا ، كما روى بيكر بصيد الافيال وبعض الحيوانات البرية الاخرى . وفى تلك الاثناء كانوا يشكلون ثقلاً قبلياً لابأس به (ذكر مايرز فى ١٨٧٤ عدة قرى للحمران) . وفى فترة المهدية كانوا يساندون الحكومة ويشرفون على مد كسلا بالمؤن الغذائية . لذلك

كانوا هدفاً للهجوم والابادة الجماعية من قبل الدراويش . لايتعدى عددهم الان بضع مئات مفرقة على اثنين أو ثلاثة قرى بستيت .

ليس من المستبعد أيضاً ان القرايشة حمر بكردفان لهم نفس الاصل حيث يعتقد بأن نسبهم يرجع الى قبيلة حميرية عبرت البحر الاحمر فى القرن السابع الميلادى (هذا التاريخ قد يكون مبكراً للارتيقة) واستقروا لفترة من الزمان بالقرب من التاكا . ويجدر بالذكر أن نشير بأن بنى فضل (قبيلة يرجع اصلها الى الجعليين وتنسب الى المناصير والرباطاب ولكنها اندمجت اخيراً مع الحمر) تضم مجموعتين أولاهما تسمى بالحضارمة (حداربا) والثانية بالحمران ولكن ليس لها ارتباط بشرق السودان ، وقد تكون هذه التسميات بمحض الصدفة . بعض بطون الهدندوة مثل الكلولى والايرهاى - قايداب يدعون النسب الى الحمران مما يوضح ان أحفاد محمد ادروب انتشروا فى مناطق كثيرة .

مما يدعم انتساب الحمران الى الارتيقة هو انتساب كليهما للمذهب الشافى مثلهم مثل قلة من الاشراف بخور بركة وهى القبيلة الوحيدة الاخرى التى تنتمى الى ذلك المذهب . والحمران مثل الحلنقة كانوا الى وقت قريب يتحدثون بالتقرى وكان بيكر يطلق على معاونيه فى رحلات الصيد كلمة «أقاقير» وهى الكلمة التقرية للصيادين . ولكن الحلنقة بسبب اتصالهم المتواصل مع جيرانهم البجاويين تخلوا عن اللغة التقرية واصبحوا يتحدثون بالبدواييت . ولكن الحمران (الذين هم الآن جزء من نظارة الشكرية) يدعون بأنهم لم يتحدثوا أى لغة غير العربية .

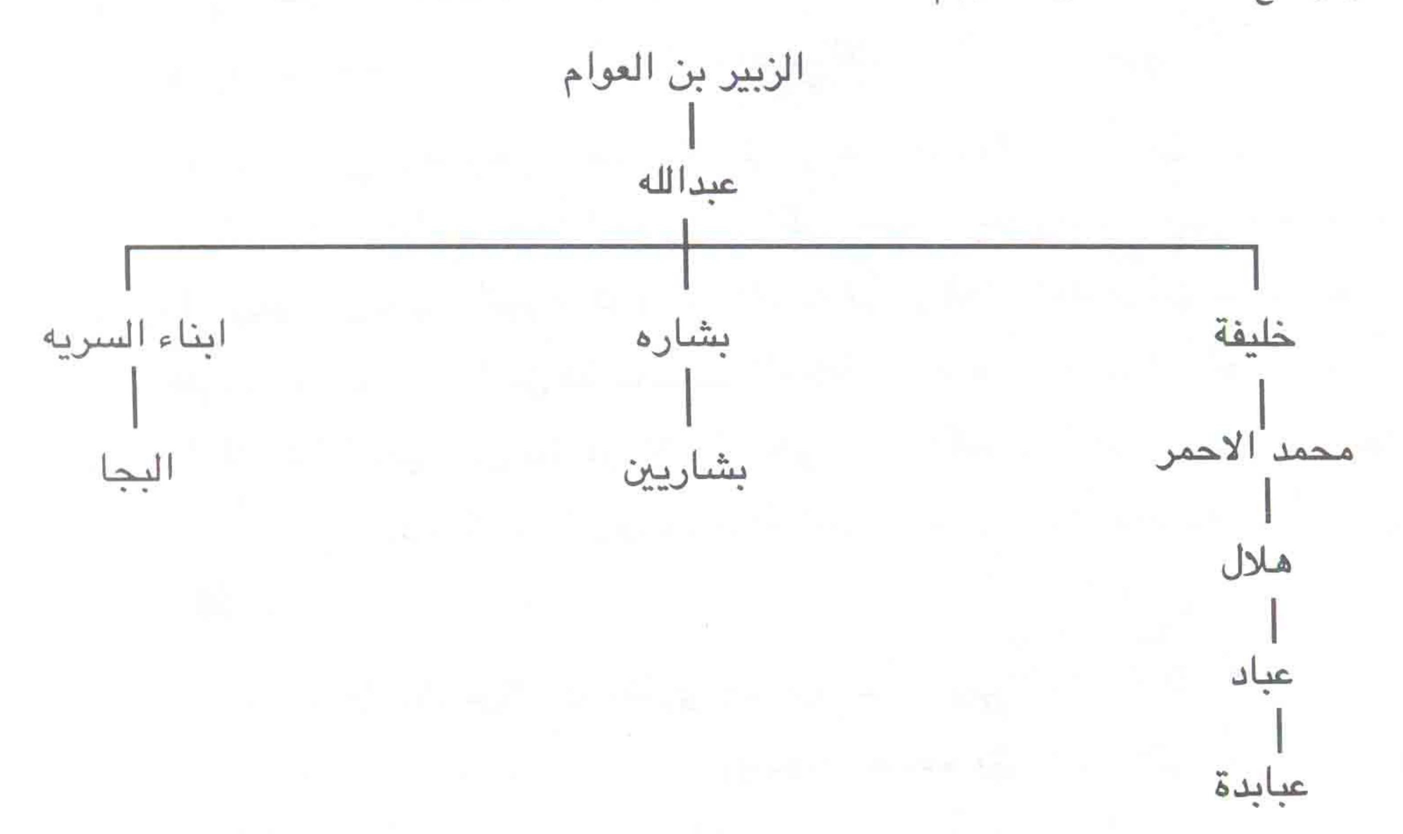
توضح شجرة النسب التالية العلاقة بين القبائل الثلاثة



الملحق الرابع

العــبابــدة

هؤلاء أيضاً يدعون النسب الى الكواهلة والزبير بن العوام الذى قتل فى موقعه الجمل وتوضع العلاقة التالية نسبهم .



هنالك مصادر كثيرة تخالف ذلك الرأى وتصر على نسبهم الحامى وارتباطهم الوثيق بالبجا . أما أنا شخصياً فأرجح روايتهم القائلة بأنهم وفدوا من مصر بصحبة جيش عمرو بن العاص واستقروا ، بعد موقعة بهانسا عام ٦٤١ ، فى وادى النيل جنوب اسوان . هنالك تزاوجوا مع البربر (كنوز) وجيرانهم البجاويين بالصحراء الشرقية مما اكسبهم مزيجا من الدماء ، هذا رغم ان بعض مجوعاتهم الرعوية فى مصر تتحدث لهجة من البداوييت .

أما المجموعات التى توغلت جنوباً نحو السودان واستقرت ببربر وشندى بالمحافظة الشمالية فإنها تدعى الاصل العربى ولاتظهر عليهم السمات البجاوية . امتاز العبابدة بمقدرة عالية على التأقلم وإشتهروا بسمعة طيبة فى العمل كمرشدين فى الطرق الصحراوية . لهذا السبب استعملهم الفونج لحماية القوافل التى تعبر الصحراء بين الكوروسكو الى ابى حمد .

الملحق الخامس

الحلنقـــة

تعتبر هذه القبيلة التى لا يتعدى عددها الان اكثر من ٢٥٠٠ شخص من أولى القبائل العربية التى تنسب الى اسماعيل . دخلت هذه القبيلة السودان ، بعد اعتناقها للاسلام ، عن طريق يختلف تمام الاختلاف عن الطرق المعهودة الاخرى .

يقال انهم من بنى سعد وعبروا البحر الاحمر فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٨٥ – ٧٠٥) ولكن اكثر الاراء ترجيحاً انهم ينتمون الى نفس الاصول التى انحدر منها عرب الحوازمة . وتقول رواياتهم بأنهم استقروا فى البداية فى مرتفعات التقرى فى حوالى القرن الثامن الميلادى ولكنهم طردوا من هنالك بسبب الخلافات الناشبة بين القبائل المحلية . بدأت فى تلك الاثناء تطرأ كثيراً من مظاهر الضعف على مملكة اكسوم . وهذه المملكة رغم انها كانت على علاقة وطيدة بمكة الا أن وجود قبيلة مسلمة وسط غالبية مسيحية لم تكن من الامور المقبولة .

لذلك فهم طردوا من مرتفعات التقرى ونزحوا عبر ميرب (القاش) الى التاكا حيث استقروا حول جبال تولوس (جبال كسلا) وبسطوا نفوذهم وزراعتهم حتى دبآب (مكلى) بدلتا القاش . وهنالك تزاوجوا ليس فقط مع القبائل البجاوية والتقرى (بنى عامر ، قادياب ، بلينى ، حفرا ، سيقولاب ، مليهيتكناب وغيرهم) بل ومع القبائل العربية مثل العبدلاب والاشراف والرباطاب والجعليين . ولازالت هذه العملية مستمرة الى يومنا هذا . وهم ايضاً لهم ارتباط بالخواويض حول كبوشية بالمديرية الشمالية . ويروى أن شيخاً حلنقياً استقر فى فترة من الزمان فى أبى طليح بصحراء بيوضة (كانت مسرحاً لمعركة الصحراء عام ١٨٨٥) وتزوج هنالك فتاة من العواضية . حاول بعد ذلك ان ينزح مع زوجته وعشيرته الى كسلا ولكنه لم يصل الى ابعد من كبوشية على الشاطئ الشرقى للنيل لان زوجته ، أثناء عبورهم للنيل ، وضعت له مولوداً لقب فيما بعض بالخواض (من خاض) .

تضم مخطوطة الشيخ أحمد الفكى المعارف مرجعاً هاماً عن الحلنقة يقول فيه :

يعتقد ان جماعة الكهوف الذين يسمون بالحلنقة كانوا يعيشون حول الجبل الكبير

اللوس بين التاكا واثيوبيا .

وفى عام ١٧٨٠ ارسل سلطان الفونج الثانى ، عدلان حملة ضدهم لم يكتب لها النجاح بسبب مقتل قائدها .

وفى نهاية القرن الثانى عشر بدأ الهدندوة يتوسعون نحو الغرب ، أى نحو عطبرة واثناء ذلك بدأوا يدفعون الحلنقة الى جبال كسلا وبالذات الى منطقة فاكيندا التى تعتبر الموقع الحالى لكسلا . وفى وقت لاحق اكتسب الحلنقة سمعة سيئة وسط البجا وذلك بسبب حثهم للمصريين لغزو المنطقة فى محاولة منهم لاسترجاع مكانتهم . نتيجه هذه العملية هى تلك الحملة الشرسة التى قادها احمد باشا ابو أضان واحمد باشا المنيكلى وبعدها اسست مدينة كسلا . لقد جنى الحلنقة ، ولكن لفترة وجيزة ، ثمار هذه الحملة حيث عوملوا كمجموعة مميزة واتيح لهم الانخراط فى الوظائف الصغرى داخل مؤسسة الحكم التركى المصرى . هذه المكانة جعلتهم يدفعون الثمن غالياً اثناء المهدية التى مارست ضدهم كل وسائل الابادة والاضهاد .

اعتقد ليجات (خطأ) الذى زار كسلا ١٨٦٠ ان الحلنقة يمثلون فرعاً من فروع الحماسيين وذلك بناء على اللغة التى يتحدثونها . ثم اضاف بأن الحلنقة هى المجموعة الوحيدة بين المجموعات الناطقة بالتقرى والتى تمارس نظاماً اجتماعياً يؤثر المساواة للجميع . أما وايرن الذى صاحب حملة أحمد باشا ابو أضان فيقول عنهم « انهم سلالة تميزت بالوسامة ورقة الاحساس بعيداً عن الكذب والوحشية اللتان تميز بهما الهدندوة . رغم ذلك فالقبيلتان تتشابهان لدرجة يصعب معها انتقاء اى خصال حميدة لكلتيهما .

يمثل الحلنقة اليوم مزيجاً من الدماء يغلب عليها الدم العربى الممزوج ببعض من التقرى وبقدر يسير من الدم البجاوى . كما يتحدثون الان البداوييت بدلا عن التقرى ولكن بصفة عامة فهم يتحثون اللغات الثلاثة ، البداوييت والتقرى والعربية . مكان تواجدهم الرئيسى هو كسلا وما جاورها ، اضافة على انهم يدعون ان علياب – الامرأر ينسبون اليهم . رغم ان الحلنقة اليوم لايشكلون ثقلا قبلياً يذكر الا أن تركيبتهم السلالية المختلطة اتاحت لهم خصائل مميزة مثل الوسامة والذكاء والمقدرة السريعة على التأقلم .

الملحق السادس

الفلاته ملى

هذه مجموعة عرقية صغيرة اكثر ما يميزها انها استطاعت فى فترة وجيزة ان تتطبع بالتقاليد والعادات البجاوية . يعيش الفلاته حول قلوسيت التى تبعد بضعة أميال عن شمال كسلا . وتوجد فى المنطقة مجموعة أخرى من قبائل افريقيا الغربية مثل الهوسا والبرنو .

هاجرت المجموعة الرئيسية للفلاتة من تمبوكتو حوالى ١٩٠١ - ١٩٠٢ وهى فى طريقها الى مكة المكرمة .. وعند رجوعها من هنالك استقرت بقلوسيت بالجزء الغربى لدلتا القاش . ومنذ ذلك الاثناء بدأت تتضاعف اعدادهم وثروتهم وامتلكوا قطعانا من الابقار والماعز وقليلاً من الجمال وانتهجوا فى حياتهم نهجاً شبه رعوى . وكبقية المجموعات الرعوية فى المنطقة فهم يعيشون فى خيام من القش والوبر الا أن خيامهم اشبه بخيام سكان افريقيا الغربية .

ولعل اكثر الاشياء الملفتة للنظر فى هذه القبيلة هو استطاعتهم التحدث باللغة البجاوية وان يتمثلوا بزيهم وبأسلحتهم . فمثلا نجد أن شبابهم يرسلون شعورهم ويستعملون الخلال ويلبسون السروال الطويل الفضفاض والصديرى ويحملون السيف والدروع مما يصعب تمييزهم عن الهدندوة الذين يعيشون وسطهم ويخضعون لسلطتهم .

الملحق السابع

الجمـل البجـاوى

يذكر ان الجمل عرف لأول مرة فى مصر عام ٥٥٠ قبل الميلاد . وكان يستعمل فى عهد البطالسة والرومان باعداد بسيطة للعمل فى الصحراء . لكنه لم يعرف بالتحديد التأريخ الذى امتلك فيه البجا للجمل ذلك الحيوان الذى لم يكن له أى دور يذكر فى تحسين اوضاع منطقتهم الصحراوية . غير أن بعض المصادر ترى ان القرن الثالث الميلادى قد يمثل الفترة الزمنية التى امتلك فيه البجا الجمل وذلك بسبب غاراتهم المتكررة ضد الرومانيين بمصر . استطاعوا منذ ذلك الوقت ان يجلبوا معهم ليس فقط اعداداً كبيرة منه بل استطاعوا وبجدارة ان يعتنوا به ويتفننوا فى ركوبه ، فهم لازالوا محافظين على هذه المهارة وتضيف بعض مصادر القرون الوسطى انهم كانوا يجيدون استعماله فى الحرب كما يجيد غيرهم استعمال الخيل . وأنا شخصياً شاهدت فى بعض الاحتفالات القبلية المقدرة الفائقة للبجاوى فى ركوب الجمل حيث يقف الواحد منهم على رجل واحدة على ظهر الجمل ويمسك بيد واحدة رسن الجمل ويده الاخرى قابضة على سيف مشهور يلوح به فى الفضاء . كما شاهدت أيضاً ان بعضهم يمتطى جملاً وفى يده وعاء ملئ باللبن ولاتتدفق منه قطرة واحدة .

توجد السلالات الجيدة للجمال وسط قبائل محدودة مثل البشاريين والامرأر ، واشهر هذه السلالات هى بانقير وكلايواو اللذان اشتهر بهما الحمد أوراب وعلياب البشاريين على التوالى .

وكلايواو الذى فاقت شهرته الآفاق ماهو الا هجين من نوعين هما بانقير وعبيديه والقبيلة التى تمارس رعاية هذه السلالة وعنايتها الان هى العلياب .

ولعل الجمل البشارى فى عيتباى هو من أجود سلالات الجمال فى السودان . فهو يمتاز بالقوة والرشاقة والسرعة ، لذلك فهو اكثر الحيوانات صلاحية لأعمال الحراسة والسفر فى الصحراء .

تمكن كرباب الامرأر ان ينشئوا سلالة جميلة من الجمال تصلح لكل الاغراض ، غير ان

جمالهم صغيرة وبطيئة ولاتصلح لحمل الاثقال .

قليل من الهدندوة يهتمون برعاية الجمال ولا توجد بينهم سلالات متميزه .

وفى الجانب الاخر نجد أن البنى عامر يهتمون بالابقار حتى اكثر من الهدندوة ، غير ان النابتاب هم أول من ادخلوا الجمل الى المناطق الجبلية جنوب خور بركة فى عام ٣٥٠ ميلادية . وفرع واحد منهم هم البرهماى الذين استطاعوا ان يطوروا سلالة جبلية من الجمال . هذه الجمال طويلة الساقين غير مريحة للركوب لكنها تصلح للاراضى الجبلية اكثر من الجمال الساحلية .

لاتستطيع الجمال الصحراوية ان تتأقلم للمناطق الزراعية والعكس صحيح . عموماً فإن الجمال تجد مشقة كبرى فى التأقلم للظروف الرعوية المختلفة . هذه الخصلة اكثر مشاهدة فى طوكر (بين الشعاياب والنوراب) حيث الجمال هنالك ترعى الحشائش المالحة التى تنمو على ساحل البحر وخور بركة . لذلك فإن الجمال التى تربى فى منطقة طوكر ليست لها قيمة تجارية خارج هذه المنطقة .